الدُّرَرُ المُكَلَّلَة

في فُتُوحِ مَكَّةَ المُشَرَّفَة

للشيخ الإمام العالم
ب الحسن البكري
رحمه الله تعالى

المكتبة الثقافية
بيروت

الدرر المكللة

في فتوح مكة المشرفة

الدرر المكللة

في فتوح مكة المشرفة

للشيخ الإمام العالم
أبي الحسن البكري
رحمه الله تعالى

المكتبة الثقافية
بيروت

الطبعة الاولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلمَ كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

وبعد: فيقول الإمام العلامة أوحد الفضلاء المحدثين أبو الحسن البكري رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

إنه لما ذكر وشاع خبر الرسول في سائر البقاع والاقطار، فشاع أمره في سائر البلدان، وارتفعت كلمته وهابته الملوك والفرسان، والأبطال والشجعان والاقران، وخافت من سطوته، وغزا الغزوات بقوة عزمه وهمته، واذعنت إليه، الملوك الاكاسرة، وذلت لسطوته الفراعنة والجبابرة والقياصرة، وأتت إليه جميع القبائل والفرسان، وأقرت بنبوته الكهان والرهبان، ودخل الناس في دين الله افواجاً، وجاءت لدعوته الأشجار، وسلمت عليه الوحوش والاطيار، وظهرت بركته في الطعام القليل، وفاض الماء من بين أصابعه وانفجر، وكانت تحرسه

الملائكة إذا اقبل أو ادبر، وشاعت معجزاته براً وبحراً، وبانت براهينه غرباً وشرقاً، وحفظه الله تعالى بالملائكة الكرام، وظلله الله بالغمام، وأيده بنصره وأطلعه مكنون سره، وأعطاه النصر والفتوح، وأسرى به ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى إلى سدرة المنتهى إلى أن التقى بالأنبياء وفيهم نوح، ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى، فخلع عليه خلعة الإكرام وأعطاه ما لم يعط أحداً من الأنبياء والرسل الكرام، وخصَّه بالشفاعة في العصاة والمذنبين يوم يقوم الناس لرب العالمين، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وأعطاه اللواء والحوض والكوثر، وفضَّله على سائر الخلق والبشر، وأرسله إلى كافة الناس بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

قال الراوي: فلما عاين أهل مكة ذلك منه اجتمعوا في دار الندوة، وكانت معدودة للمشورة بينهم في سائر الأمور من خير أو شر، وتذكروا في أمر محمد ﷺ بينهم، وما نالهم من قبل معادلتهم وفرسانهم مثل يوم بدر وواقعة أحد وحنين، وقد عطل أديانهم وخذلهم، وأظهر بهتانهم، ونكسَ أصنامهم، فصاروا يترددون إلى دار الندوة يتشاورون في أمره إلى رأس ثلاثة أيام وهم لا يتهنون بطعام ولا بشراب، واتفق رأيهم أن

يرسلوا إلى النبي ﷺ أبا سفيان، وصخر بن حرب، وسهل بن عمرو، وضرار بن الخطاب، وصفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل. وكتبوا كتاباً وذكروا في أوله باسمك اللهم.

وجاء في الكتاب:

أما بعد، يا محمد، هذا كتاب من أهل مكة وسادات قريش وبني هاشم وبني عبد مناف وغيرهم من سائر القبائل والعربان، بأن اتفق رأيهم ومشورتهم على أنك تعاهدنا ونعاهدك أن لا تغزونا ولا نغزوك، ولا تؤذينا ولا نؤذيك، ولا نحاربك، وتكون هذه المعاهدة مدة سنتين وثمانية أشهر لا يصير فيها بيننا وبينك قتال، ولا يقال فيها رمح ولا يسل فيها سيف، ولا يؤخذ فيها مال ولا بنون. ثم كتبوا في آخر الكتاب:

هذا كتاب كتبناه بأيدينا ... فاشبه حقيقا بانا لا نخالفه
أن لا تحاربنا في يوم معركة ... ولا تكون علينا أنت تعرفه
وإن أتى لك منا من يخالفنا ... عن دين ابائنا حقاً تشيعه
ونحن، إن جاءنا من قومكم أحد ... نرده عاجلاً حقاً وننصفه
ونتقي الشر والقتال كذا ... ما كنت تكتب حقًّا لا تغيره

عامين تمضي بلا حرب ولا غلب   كـدا ثـمان شهـور أنت تعـرفـه
إن كنت تعرف هذا فـاكتب لنا   صحيفـة مثل هـذا لا نخـالفـه

فلما فـرغوا من ذلـك، أخذ الكتـاب أبو سفيـان وختمـه بخاتمه، ثم نهض قائماً بـين القبائـل والسادات من قـريش، وقال: لا يمضي بهذا الكتاب إلى محمد إلا أنا ومَنْ أريد معي من عشيرتي وقومي. فأجابوه: السمعَ والطاعة وقالوا: أنت يا أبا سفيـان نعم الكفـء لهذا الأمـر، لأنك خبـير بـأمـور محمـد وأحواله.

ثم إن أبا سفيان أفرغ على نفسه لامة حربه، ولبس درعاً، ووضـع على رأسـه بيضة عـادية، وتعمَّم، واعتقـل بسيفه، وركب جواده، وودع زوجته، وسار إلى قومه وهم مجتمعون، فلما رأوه في هذه الهيئة ودنا منهم قاموا إليه إجلالاً. وكان أمر أصحابه الذين أختارهم لصحبته بعد أن ذهبوا إلى منازلهم أن يأخذوا أهبتهم فلبسوا لامات حربهم وأتوا إليه مسرعين.

ثم ودعوا القوم وصاروا مجدِّين إلى مدينة رسول الله ﷺ، إلى أن دخل المدينة وقصد محمداً ﷺ فأذن لهم في الدخول. وكان الأمين جبريل عليه السلام أخبره بذلك وعرَّفه بما جاءوا

به وبما في الكتاب، ولكل ما ذكروه في دار الندوة، وأمر أن يجيبهم فيما يطلبونه، وإن ذلك يكون سبباً لفتح مكة المشرفة. والله تعالى ناصرك عليهم وستكسر اللات والعزى والهبل الأعلى والله على كل شيء قدير.

قال الراوي: فلما دنوا من النبي ﷺ تقدم أبو سفيان ومَنْ معه وسلموا عليه سلام الجاهلية، وحيوه بما يحيّيه الله به، فقال لهم ﷺ: قد بدّل الله لنا بسلام خير من سلامكم وتحية خير من تحيتكم هذه، قالوا: فما هو؟ قال: قولوا السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. فقالوا: يا محمد هذا شيء لا نعرفه، ولا نقول إلا ما وجدنا عليه أباءنا وعليه أهل مكة. فقال ﷺ: وأين الكتاب الذي جئتم به؟ وما الذي تشاورتم عليه أنتم وأهل مكة في دار الندوة؟ فقال أبو سفيان: ومن أعلمك بذلك يا محمد ولم يكن أحد من أهلك عندنا قط. فقال النبي ﷺ: أخبرني أخي جبريل عن رب العالمين. فقال له: صدقت يا محمد. ثم ناوله الكتاب فأخذه وسلمه إلى الإمام علي، كرم الله وجهه، فقرأه على النبي ﷺ وأصحابه يسمعون.

فلما فرغ من قراءته قال النبي ﷺ: اكتب لهم يا أبا الحسن

ردّ الجواب بحيث أن يكون في أوله بسم الله الرحمن الرحيم. فقال أبو سفيان: لا تكتب بسم الله الرحمن الرحيم. فقال له النبي ﷺ: ولم ذلك يا أبا الحرب؟ فقال: يا محمد لو أقر أن ربك الرحمن الرحيم لما خالفناك في شيء ولا عاديناك. قال: فماذا نكتب يا ابن حرب؟ فقال: اكتب باسمك اللهم. فقال النبي ﷺ لعلي رضي الله تعالى عنه: يا أبا الحسن اكتب له ما يريد ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

قال الراوي: فكتب الإمام علي، رضي الله تعالى عنه، باسمك اللهم ذلك حتى بلغ الكتاب ويفعل الله ما يشاء وهو الفعال لما يريد. وكتب الإمام علي إلى سادات قريش من أهل مكة وبني عبد مناف وغيرهم من سائر القبائل والعربان، بشهادة من حضر من أبي جهل، وضرار بن الخطاب، وسهل ابن عمرو، ورءوس أهل مكة، ومَنْ حضر من المهاجرين والأنصار وبني لؤي بن غالب أنا لا نغزوهم ولا يغزوننا إلى ما تضمنه الكتاب من الشروط التي تضمنها كتابهم. وقد أجبناهم إلى ما سألوه وأن تكون المعاهدة إلى عامين وثمانية أشهر إلى أن قال: والله يشهد بذلك وملائكته وحملة العرش أجمعين، ومَنْ حضرَه من الأنصار والمهاجرين.

ثم قرأه الإمام علي رضي الله عنه على النبي ﷺ وأصحابه يسمعون ذلك. ثم أخذه ﷺ وختمه بخاتمه المبارك وطواه وناوله لأبي سفيان، فأخذه من يده الكريمة وقبّله وودع النبي ﷺ وسافر هو ومَنْ معه فرحين مسرورين، وظنوا أنهم بلغوا مطلوبهم ومرادهم والله غالب على أمرهم.

قال الرّاوي: فلما توجهوا من المدينة طالبين مكة فأنشد أبو سفيان يقول:

كفينا حروباً قد تحدد أمرها فيا ليت شعري ما يكون من الأمر
فقلبي ونفسي والجوارح كلها لقد ملئت رعبا إلى آخر الفكر
وما بعد هذا الأمر إلا شدائد وقتل وسبي العبد منافع الحر

قال الراوي: ثم إن أبا سفيان رفع رأسه إلى السماء فرأى الشمس وهي فيها جارية والرياح سائرة، والوحوش في البراري راتعة ورائحة وغادية، فتحرك بأمر الله عند ذلك قلبه وطار لبه وحضرت فكرته فنطقت عند ذلك مقالته، وأنشد يقول:

أيا رافع العلياء، يا باسط الثرى وخالق كل الخلق والشمس والبدر
ومُجْري البحار التي اجريت بأمره ومُرْسي الجبال الصُّمّ والسهل والوعر

وخالق وحش البر والبحر كلهم ورازقهم فيه إلى منتهى العمر
فولٍّ علينا من يكون صلاحنا ومرشدنا للخير يا كاشف الضر
وتعلو به دنيا وأخرى على ضيا بحق منى والبيت والركن والحجر

قال الراوي: فوالله ما استتم أبو سفيان كلامه حتى هتف هاتف يسمع كلامه ولا يرى شخصه على شعره يقول:

الذي نرجوه أرسل للورى جاءنا هداية للخلائق منذرا
وهو المفضل والمكرم والذي حاز الفضائل واللوا والكوثرا
هو احمد ومحمد خير الورى المصطفى المزمل المدثرا
وهو المكرم والمعظم قدره وهو المبجل والسراج الانورا
الله فضله وأكرم خلقه وحباه من فضل ونصر مشهرا
فاتبع هدايته ولا تكن بمخالف تصل الجحيم ونارها تسعرا
واترك لدى الأصنام عنك وخلها واعبد إله الخلق ربك اكبرا
رب رحيم خصنا بمحمد خير البرية هاديا ومبشرا
مَنْ سبحت في كفه صم الحصى - والماء من بين الأصابع قد جرى

قال الراوي: فلما قرب منها أرسل رجلاً إلى أهل مكة يعلمهم بخبرهم، ويبشرهم أن محمداً قد أجابنا إلى سؤالنا،

وأنه لم يخالفنا في شيء، وقد كتب لنا رد الجواب بما به تشفى قلوبنا.

قال الراوي: ثم إن أهل مكة لما بلغهم قدومهم خرجوا إلى لقاء أبي سفيان وأصحابه. فلما نظرهم أبو سفيان ترجل إليهم عن جواده، وكذلك أصحابه، وسلموا عليهم يهنئونهم بالسلامة، وساروا يمشون خلفهم وعن يمينهم وعن شمالهم، حتى وصلوا إلى الحرم الشريف، فجلست السادات حول الكعبة المشرفة، وإذا بالطعام والشراب أتى إليهم، فأكلوا وشربوا. ثم فتحوا الكتاب الذي جاء من عند رسول الله ﷺ وقرءوه على السادات ورؤساء القبائل، وفرحوا بذلك فرحاً شديداً وظنوا أنهم بعد ذلك بلغوا مرادهم ومقصودهم والله تعالى غالب على أمرهم.

قال الرَاوي: ثم إن أبا سفيان وثبَ قائماً وأخذ كتاب النبي صلى الله عليه وسلم واستأذن سادات مكة في قراءته عليهم، وأن يعلقه في باب الكعبة ولا يقربه أحد بسوء، فأجابوه بالسمع والطاعة واشتغلوا بالضيافات والإكرام والإنعام على الخاص والعام. وأقام من أهل مكة سادات قريش وبنو عبد

مناف أو بنو عبد الدار في أطيب عيش وأرغده، وأكثروا من الزرع حتى كثرت أشجارهم ونمت ثمارهم وكثرت مواشيهم وأغنامهم، وهم في غفلة يعبدون الأصنام والأوثان من دون الملك الديان، حتى ضجت منهم الملائكة الكرام، وضجت الأرض ونادت الملائكة قائلين: إلهنا ومولانا إنا نرى هؤلاء القوم والكفار وسوء فعلهم وهم جيران بيتك الحرام. ونادى كذلك البيت: طَهِّرْ بيتك الحرام من الرجس والأصنام بنبيك محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، وهو خير الأنام وسيد الخاص والعام إنك على كل شيء قدير.

ذكر فتوح مكة المشرفة شرف الله قدرها

قال الراوي: فلما أراد الله تطهير بيته الحرام من الأصنام والأوثان، وكان ذلك بعد مضي سنة وثمانية أشهر وبقيت سنة واحدة في المعاهدة، خرج رجل من حي بني بكر بن وائل وقدم إلى حي بني خزاعة، فلقيه رجل تاجر كان يتردد عليهم مراراً يشتري منهم ويبيع عليهم يساعد ذلك الرجل على قضاء حوائجه، فتقدم إليه وسلم عليه ورحب به وأومأ إليه بالمسير

معه إلى منزله كعادته. فأجابه إلى ذلك ومشى معه، فعثر البكريّ بحجر كان ملقى في الأرض بقدرة الله لا مانع لما قضى ولا معقب لما حكم. فقال البكري عند ذلك: تعثر فلان وهو النبي ﷺ. وجعل يسبه، فالتفت إليه الخزاعي وقال له: يا هذا أين ذهب عقلك حتى تسب سيد المرسلين محمد ﷺ من غير ذنب ولا جرم؟ إن هذا لشيء عجيب. إن لم تنته لأحرمنك البيع والشراء. فقال البكري: أو يعظم عليك هذا؟ فقال الخزاعي: والله، إنه لأمر عظيم وخطب جسيم.

قال الراوي: فلما نظر إليه البكري وقد تغيظ العداوة قال له: لأزيدنّك غيظاً. وصار يسب النبي ﷺ سباً فاحشاً. فامتلأ قلب الخزاعي غيظاً وأخذته الغيرة على النبي ﷺ فوثب قائماً ونظر يميناً وشمالاً فرأى عظم ركبة جمل بجانب حانوته، فأخذها وأتى بها إلى البكري وصار يضربه حتى قضى عليه وعجل الله بروحه إلى النار وبئس القرار.

قال الراوي: ثم حفر له حفرة وألقاه فيها، وأهال عليه التراب، وأخذ ما كان معه من التجارة وغيرها، وابتدر مسرعاً إلى أهله وعشيرته وأخبرهم بذلك، ففرحوا فرحاً شديداً، فلما

سمع بنو بكر بن وائل بقتل صاحبهم، عظم ذلك عليهم فجمعوا جيوشهم وخرجوا مسرعين إلى قتال بني خزاعة قاصدين ولسان حالهم يقول:

أتينا بجيش لا تطيق خزاعة مبيد ... على طول الزمن للمعاشر
لقد قتلوا منا شجاعاً لبغيهم ... وقد خالفوا دين الكرام الاكابر
وصالوا عليه في الديار جميعهم ... وقد طال ما ابدى لهم بالبواتر
ستجلو ديار منهم بسيوفنا ... بقتل السادات والاكابر

قال الراوي: ولم تزل بنو بكر سائرين وبجيوشهم قاصدين ولبني خزاعة طالبين. فلما نظر بنو خزاعة إلى جيوشهم وعساكرهم قال بعضهم لبعض: ليس لنا بهذه الجيوش والعساكر طاقة. وكانوا جيوشاً عظيمة. ثم إنهم أخذوا أموالهم وساروا إلى مكة مستجيرين بأهلها فنطق لسان الحال مترجماً بهذا المقال:

نسير إلى البيت الحرام بجمعنا ... ونحظى به من قبل أن ينقضي الأمر
ونسعى لبيت الله ثم نطوفه ... طواف قدوم الحطيم كذا الحجر
ومن بعده بمروة والصفا ... ونروي بماء لا يضاهيه كوثر
ونسأل مولانا يجود بفضله ... على كسرنا بالجود منه ويجبر
بقوم كرام نستجير من العدا ... عساهم يجيرونا بجود وتنصر

فهم سادة ما خاب قط نزيلهم حقيق بهم أن يستجيروا وينصروا
ولم لا فيهم قد نشا اكرم الورى نبي لـه جاه عظيم مؤزر
نبي الهدى الرحمن ناصر دينه لـه فئة أسد ليوث كواسر

قال الراوي: ولم تزل بنو خزاعة سائرين إلى مكة المشرفة حتى قربوا منها ونزلوا في الابطح ثم دخل ساداتهم وكبراؤهم إلى الحرم الشريف، فطافوا بالبيت الحرام، ووصلوا خلف المقام، وسعوا بين الصفا والمروة. فسمع سادات قريش وبنو هاشم وبنو عبد مناف وبنو عبد الدار وغيرهم من أهل مكة بقدومهم، فدخلوا عليهم الحرم، واقبلوا عليهم مسرعين، وسلموا عليهم، وصافحوهم وعانقوهم واحضروا لهم الطعام والشراب، فأكلوا وشربوا. ثم أخبروهم فأجابوهم إلى سؤالهم. ثم وثب عند ذلك أبو سفيان وأشار إلى بني خزاعة أن اتبعوني. فقاموا وفرحوا بذلك وأقبلوا يسعون خلفه وكذلك السادات ومَنْ كان حاضراً معهم، وأتى بهم دار الندوة فقال لهم: انزلوا ههنا آمنين مطمئنين على أنفسكم ومَنْ معكم مستجيرين بالحرم الشريف. فلما رأى بنو خزاعة ذلك الاكرام من أبي سفيان وغيره من السادات فرحوا فرحاً شديداً وجازوهم على ذلك.

قال الراوي: فاقبلوا من وقتهم وساعتهم وارتحلوا من الابطح بجمعهم ونزلوا في دار الندوة، وجعلوا يحمدون الله ويهللونه ويسبحونه ويكبرونه على ما أواهم وأجارهم من عدوهم، وأكثروا من الصلاة والسلام على النبي ﷺ، وجعلوا يكثرون من الطواف بالبيت الحرام والسعي بين الصفا والمروة مدة ثلاثة أيام بلياليها، وقد زال عنهم الخوف والفزع وسادات مكة لا تفارقهم ليلاً ولا نهاراً، والضيافة تأتيهم من أول النهار إلى آخره، والحذر لا يغني من القدر وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

ذكر فتوح مكة وقتلهم الخزاعيين ليلاً وأخذ أموالهم ومعاونة أهل مكة لهم في ذلك

قال الراوي: ولم تزل عساكر بني بكر سائرين حتى أشرفوا على أهل مكة المشرفة، وساداتها لم يزالوا سائرين لمكة طالبين حتى قربوا منها فنزلوا بالأبطح، فدخلوا بساداتهم وكبرائهم إلى الحرم الشريف، واجتمعوا بسادات مكة وأكابر أهلها فسلموا عليهم وصافحوهم واحضروا لهم الطعام والشراب، فامتنعوا عن الأكل والشرب، فقال لهم أبو سفيان: ما الذي منعكم أن

تأكلوا من طعامنا؟ فقالوا: يا أبا سفيان، لا نأكل ولا نشرب من عندكم حتى تمكنونا من أعدائنا وأخذ ثأرنا منهم، فقد قتلوا منا فارساً مناعاً وكان في الحرب يعد بألف فارس، وإلا نقضنا العهود والمواثيق التي بيننا وبينكم بالقتال والحرب الشديد. فوثب عند ذلك أبو سفيان وقال لهم: يا ساداتنا قد أجبناكم إلى مطلوبكم فكلوا واشربوا وطيبوا أنفسكم واشرحوا صدوركم، ولكن اصبروا حتى يذهب النهار بنوره ويأتي الليل بظلامه؛ فعند ذلك أخذوا أهبتهم ولبسوا الامات حربهم وجعلوا ينتظرون قدوم أبي سفيان.

فبينما هم كذلك إذا أقبل عليهم أبو سفيان في نصف الليل الثاني فوجدهم مهيئين، فقال لهم: يا سادات بني بكر دونكم وأعداءكم ونحن نساعدكم. فوثبوا عند ذلك كالأسود الضارية وهجموا عليهم وهم بين قائم وراكع، فوضعوا فيهم السيف فقتلوهم عن آخرهم رجالاً ونساء، أحراراً وعبيداً، إلا رجلين منهم قد سلمهما الله تعالى بجوده وكرمه ووقايته ورعايته ليكون ذلك سبباً لفتح مكة. وذلك أن الرجلين، عندما استيقظا من نومهما ونظرا إلى الاعداء وقتلهم في قومهم، جعلا أنفسهما بين القتلى وأعمى عنهما أبصار الاعداء بقدرته. وكان

أحدهما يسمى هذيل بن ارقم والثاني عمرو بن سالم.

قال الراوي: فلما صبح الله بالصباح وأضاء كوكب نوره ولاح، وقد قتل بنو بكر قومهم وعشائرهم وغنموا ما كان معهم، وأهل مكة يعاونوهم في كل ذلك. فلما رأيا ذلك الأمر بكيا بكاء شديداً، ثم ألهمهما الله تعالى أن يسيرا إلى النبي عليه الصلاة والسلام ويستجيران به ويطلبان ثأرهم من عدوهم. فالتفت هذيل بن أرقم إلى عمرو بن سالم وقال له: يا أخي هيا بنا نخرج من مكة سالمين لئلا يعلموا بنا فيقتلونا. فأجابه إلى ذلك، وقد سترهما الله تعالى بستره الجميل. ثم أقبل عمرو إلى هذيل وقال له: ما أصابنا ذلك إلا بصحبتنا لرسول الله وعيرتنا عليه، فامض إليه نسلم عليه ونطلب منه أن يأخذ بثأرنا من أعدائنا. فوالله ما خاب مَنْ قَصَده.

قال الراوي: ثم أقبلا مسرعين، وإلى مدينة النبي عليه الصلاة والسلام طالبين. فلما ابتعدا عن مكة المشرفة قال عمرو ابن سالم لهذيل بن أرقم: يا أخي جد بنا في المسير لئلا يسبقنا أحد من أهل مكة يشتكينا للنبي عليه الصلاة والسلام فتبطل حجتنا ويخيب سعينا فأجابه إلى ذلك وأنشد يقول:

على رأسنا نسعى إلى خير مرسل وأكرم مبعوث أتى بالرسالة
نسير إلى من ظللته غمامة من الحر والبرد في كل لحظة
ومن جاءت الأشجار طوعاً لأمره وخاطبه ظبي الفلا مع غزالة
ومن جاء بالدين الحنيفي داعيا إلى رب العالمين بدعوة
عساه بفضل الله يجبر كسرنا وينصرنا من أهل شرك ضلالة
ويأخذ ثأراً من لئام ببغيهم علينا بلا ذنب ومن غير جرمة
ولكن قتلنا مشركا ومعاندا لقد طال ما سبَّ النبي بجحدة
فيا سيد الكونين يا أشرف الورى ويا خير مبعوث أتى بالرسالة
فما خاب من اضحى لذاتك طالبا وما خاب من أمسى لديك بحالة
أتانا بنو بكر اللئام جميعهم وصالوا علينا بالسيوف الصقيلة
وقد قتلوا أولادنا ورجالنا ولم يبق منا من تراه بمقلة
فخذ يا رسول الله بالثأر منهمو فإنا شهدنا كلنا بالرسالة

قال الراوي: ولم يزالا في المسير مجدين وإلى مدينة رسول الله قاصدين، فلما وصلا إليها أتيا مسجد النبي عليه الصلاة والسلام، فاستأذنا في الدخول عليه فأذن لهما فدخلا عليه وهما باكيان مستغيثان بالله ورسوله، فسلما عليه فرد عليهما السلام، ورحب بهما وأكرمهما، وقال لهما: ما الذي دهاكما؟ فأخبراه. فقال لهما النبي عليه الصلاة والسلام: ألا أتيتما إلى مكة

واستجرتما بساداتها. فقالا: يا رسول الله وهل فعل بنا ذلك إلا أهل مكة؟ وقد مكنوا اعداءنا منا في دار الندوة. ثم إن هذيل بن أرقم انشد وقال:

فيا رسول الله أسرع بالندا وادعو عباد الله يأتوا مددا
إن قريشا أخلفوك الوعدا ونقضوا ميثاقك المؤيدا
وهم أذل وأقل عددا ولم يخالفوا ربنا الموحدا
جاءوا به والليل يبدو أسودا ونحن في الظلام كنا سجدا
داعين الله الذي تمجدا وخاضعين للذي توحدا
صلى عليك ربنا طول المدا ما سار نجم في الظلام واهتدى

قال الراوي: فعند ذلك تغرغرت عينا رسول الله ﷺ بالدموع وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ثم ضرب يده على الأخرى، ثم استرجع وقال: فعلتموها يا قريش، فعلتها يا أبا سفيان! ليَقْضِ الله أمراً كان مفعولا.

قال الراوي: فما استتم كلام رسول الله عليه الصلاة والسلام حتى نزل عليه الأمين جبريل وقال: السلام عليك يا رسول الله؛ العلي الأعلى يقرئك السلام ويخصك بالتحية والاكرام، ويقول لك: ملائكة السبع سموات قد بكوا ببكاء

هؤلاء القوم مما نزل بهم، فلا تغفل عن دمائهم ولا عن أخذ ثأرهم فقال النبي ﷺ: يا أخي، يا جبريل، إن بيننا وبين أهل مكة وساداتها عهوداً ومواثيق. فقال جبريل عليه السلام: يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد.

ثم عرج من وقته إلى السماء، فما كان إلا ساعة حتى نزل وقال: السلام عليك يا رسول الله، اقرأ. فقال له النبي ﷺ: يا أخي يا جبريل وما اقرأ؟ قال: اقرأ قوله تعالى﴿وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا ائمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون * إلا تقاتلوا قوما نكثوا أيمانهم وهموا باخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة اتخشونهم فالله احق ان تخشوه أن كنتم مؤمنين﴾ إلى ﴿والله عليم حكيم﴾.

ثم عرج إلى السماء سريعاً فقال النبي عليه ﷺ عند ذلك ثلاثا: مما أخاف وأحذر؟ ثم التفت النبي عليه الصلاة والسلام إلى هذيل بن أرقم وعمر بن سالم وقال لهما: يا بني خزاعة هل بقي لكم من عشيرة في حيكم؟ قالا: يا رسول الله الحي ملان بالرجال والأطفال والشجعان والفرسان. فقال النبي ﷺ: امضيا إليهم وأتياني بهم مسرعين ولا تتركا في الحي إلا النساء والصبيان ومن لا طاقة له على الجهاد والقتال، ولا تمهلا؛ فإنا

ذاهبون لنصرتكم إن شاء الله تعالى. فأجاباه بالسمع والطاعة، وقبلا يده الكريمة، وواعداه، فدعا لهما، وخرجا من المدينة فرحين مسرورين. فلما ابتعدا عن المدينة نطق لسان الحال يقول:

أتينا لخير المرسلين محمد بقلب كسر صار بالكسر مؤلما
فجاد علينا بالقول بفضله وواعدنا أخذا بثأر واكرما
وبادر باعلام كل قبيلة لتؤدي إليه جيش حرب عرمرما
وقال لنا سيروا إلى الحي سرعة بجيش لنا تأتي به ونكلتما
فما خاب عبد يستجير باحمد شفيع لنا يوم الحساب مقدما
نبي له جاه عظيم ورفعة على أنبياء الله حقا مكرما

قال الراوي: ثم إن النبي ﷺ قال: أين ابن عمي كرم الله وجهه؟ فأجابه بالتلبية: ها أنا بين يديك مُرْني بما تريد. فقال عليه الصلاة والسلام: يا أبا الحسن اكتب إلى كل القبائل والعربان ممن دخل في ديننا وآمن بربنا، وصدق برسالتي ونبوتي، ليحضروا إلينا بجيوشهم وعساكرهم للجهاد في سبيل الله ليحصل الأجر والثواب والغنيمة إن شاء الله. فأجابه الإمام علي رضي الله عنه بالسمع والطاعة.

قال الراوي: ثم إن الإمام عليا، رضي الله تعالى عنه، كتب كما أمره النبي ﷺ، ثم دعا بالسادة، مثل عمر بن أمية الضميري وعبدالله بن أنيس الجهني وأمثالهما، وأمرهم أن يتوجهوا بالكتب إلى القبائل والعربان، وأمر النبي أهل المدينة المنورة أن يأخذوا الأهبة للغزو والقتال. وكان قد استهل شهر رمضان المعظم فقدمت وفود العرب على النبي ﷺ والسادات والنجباء وأهل الفضل والأدب، وكان أول من قدم عليه أول يوم من رمضان قبائل مزينة وفرسانها، وفي اليوم الثاني أتت إليه جهينة وشجعانها، وما زال كل يوم تأتيه قبيلة من العربان أمر النبي عليه الصلاة والسلام.

فلما تكاملت القبائل قال عليه الصلاة والسلام لبلال أن يأتيه ببغلته الدل، فأتى بها مسرجة ملجمة. فلما جاء بها إليه ركبها صلى الله عليه وسلم وكان ملحفاً ببردته الصفراء متقلداً بسيفه وفي اصبعه اليمين خاتم من الفضة البيضاء، وأخذ الإمام عليا كرم الله وجهه عن يمينه، والعباس عن يساره، وحوله أهله وأقاربه والمهاجرون والأنصار، وهو بينهم كالبدر في تمامه ولم يبق في المدينة ذلك اليوم لا كبير ولا صغير، ولا مخدورة في خدرها ولا محجوبة في بيتها، إلا وخرجت، ذلك

لكي ينظروا إلى نوره صلى الله عليه وسلم وإلى كثرة تلك القبائل والعربان، ولم يكونوا رأوا مثل كثرتهم قط. ثم أمر النبي ﷺ مَنْ ينادي في سائر القبائل والعربان: النبي ﷺ قادم عليكم فتأهبوا لقدومه والسلام عليه فإن مَنْ نظر إلى وجهه الكريم وسمع حسن كلامه ومنطقه سعد في الدنيا والآخرة.

ذكر النبي صلى الله عليه وسلم للقبائل والعربان وسلامه عليهم

فلما سمعت القبائل والعربان المنادي لبوا قائمين على اقدامهم، ودخلوا خيامهم الهندية، واعتقلوا بالرماح الخطية، ووقفوا صفوفاً ينظرون قدوم النبي صلى الله عليه وسلم، فنطق عند ذلك لسان الحال مترجماً عن المقال يقول:

رجونا وتقنا للذي زين الورى ... بوجه يفوق البدر ليلا إذا بدا
محمد المبعوث للناس رحمة ... ومنقذهم من ظلمة الكفر والردى
ويجلي قلوبا بعد شين ضلالة ... وأضحى لدين الشرك بالسيف أخمدا
نبي إذا أسرى فتسري غمامة ... عليه تقيه الحر والبرد سرمدا

وتحظى بنيل الاجر حومة الوغى　　وتقتل من أضحى عنيدا معاندا
إليـك رسول الله جئنـا بجمعنـا　　لنرجوه امامنا في المعـاد ومسمدا
فكن ذخـرنا يـا سؤلنا ورجـاءنا　　فما خاب من اضحى بجاهك منجدا

قال الراوي: فبينما القبائل وسائر العربان واقفون صفوفاً قد ملأوا الأودية والقفار والسهل والأوعار، إذا سطع لهم نور قد علا وقد أخذ بعنان السماء، وإذا هم برسـول الله صلى الله عليه وسلم وقد أقبل عليهم بوجهه الكريم وهو بين أقـاربه وأصحابه وعشيرته والمهاجرين الأنصار كالبدر في تمامه وكماله. فجعلت كل قبيلة تترجل عن خيولها اكراماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتأتي وتقبِّل يديه، فسلم عليهم وهو يرحِّب بهم ويأمرهم بالرجوع إلى خيمهم. وما زالوا يأتون قبيلةً إلى أن سلم على جميع القبائل والعربان وكانوا يومئذ اثنتين وسبعين قبيلة(١) لا يعلم عددهم إلا الله سبحانه تعالى ا هـ.

قال الراوي: فلما رأى النبي صـلى الله عليه وسلم كـثرة القبائل والعربان رفع يديه إلى السماء وجعل يدعو، أو يقول: رب أوزعني إن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي

(١) قوله لا يعلم الخ . . كانوا عشرة آلاف.

وإن أعمل صالحاً ترضاه، اللهم حقّق لنا في قريش ما وعدتني به وما عزمت عليه، فلا يشعرون إلا ونحن في ديار القوم. إنك وعدتني بالنصر والغنيمة، وإنك لا تخلف الميعاد، يا مَنْ أمره بين الكاف والنون، يا مَنْ إذا أراد شيئاً أن يقول له كُنْ فيكون يا رب العالمين.

قال الراوي: فلما فرغ النبي ﷺ من سلامه على القبائل والعربان مع أصحابه وأقاربه والمهاجرين والأنصار، أتى إلى مسجده صلى الله عليه وسلم وصلى بأصحابه صلاة الظهر، وأسند ظهره المبارك إلى حائط محرابه، استأذنه حاطب بن أبي بلتعة القيسي أن ينصرف إلى أهله فأذن له ولغيره من الحاضرين.

قال الراوي: فلما خرج من المسجد ونظر إلى تلك القبائل والعساكر والجيوش قال في نفسه لقد غزونا مع النبي صلى الله عليه وسلم غزوات كثيرة ما رأينا أكثر من هذه العساكر والجيوش، وما أظن أنه جمع هذه العساكر والجيوش إلا يريد مكة ولنا فيها اقارب وعشائر ومحارب. ولئن دخل بهذه العساكر والجيوش مكة لا يدع فيها كبيراً ولا صغيراً إلا أهلكه، ولا مالا لأحد من أهلها إلا أخذ، ولا امرأة إلا سباها. والله لأكاتبهم

بكتاب أعلمهم فيه بما قد عزم عليه الرسول صلى الله عليه وسلم ليكونوا معه على أهبة وحذر. ثم عمد قاصداً إلى منزله ودخل وأغلق بابه وعمد إلى دواة وقرطاس وكتب كتاباً بيده ويقول: بسم الله الرحمن الرحيم من عندِ عبدالله حاطب ابن أبي بلتعة القيسي إلى أهل مكة وساداتها وكبرائها من سادات قريش وأبي سفيان وغيرهم من سائر القبائل والعربان؛ أعلمكم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد جمع جيوشاً وعساكر ما رأيته قد جمع مثلها أبداً، وأظن أنه لا يريد بها إلا قتالكم ومحاربتكم. فكونوا على أهبة وحذر من حولكم من القبائل والسادات والعربان ليعينوكم على قتاله ومحاربته. وقد اشفقت عليكم، ولو استطعت المجيء وكنت عوضاً عن هذا الكتاب، لفعلت. ثم كتب في آخره هذه الأبيات:

جهدت بجهد ويلكم لا تغفلوا ... وكونوا على خوف وإلا فتخذلوا
إذا لم تدينوا بالذي جاءنا ... فحولوا عن البيت الحرام وارحلوا
فإن دمي فيكم ونصحي لكم أبدا ... ولولاكم والله ما كنت افعل
وكونوا على أهبة يا أقاربي ... ولا تغفلوا عن المكان فتقلتوا

قال الراوي: ثم أخبرهم في كتابه ما عاينه من أمر النبي

صلى الله عليه وسلم من أوله إلى آخره. ثم طوى الكتاب وختمه بخاتمه ووضعه في عمامته، وأخذ معه مائة دينار وخلعة يمانية يرغب فيها لمن يوصل الكتاب لأبي سفيان وأهل مكة. ثم قام وتقلد بسيفه وركب جواده واعتقل برمحه، فتعلقت به زوجته وقالت: إلى أين بعثك النبي صلى الله عليه وسلم ولا تعلمنا؟ إن هذا الأمر عجيب. فقال: والله، ما ثَمَّ رسالة ولا غزوة، ولكن لي أصحاب بظاهر المدينة عزمت على زيارتهم. فقالت: الصحبة والسلامة حتى ترجع إلينا سالماً غانماً. ثم قبلت صدره ويديه وخرج من منزله وأطلق عنان جواده حتى بَعُد عن المدينة. ثم ترجَّل عن جواده وأخذ بعنانه وجلس على قارعة الطريق ينتظر أحداً متوجهاً إلى مكة أو جاء منها.

قال الراوي: وكانت امرأة من أهل مكة اسمها جرادة قد أتت إلى أهلها بمدينة النبي صلى الله عليه وسلم زائرة، وقامت عندهم أياماً، ثم استأذنتهم في الرجوع إلى مكة، فجهزوها بإحسان وإنعام وخير وإكرام وأقبلوا عليها وودعوها وشيعوها إلى ظاهر المدينة، ثم أمروها بالمسير. فركبت راحلتها ورجعوا عنها.

قال الراوي: فصادفت بأمر الله وقضائه حاطب بن أبي بلتعة القيسي فمرت به وهو جالس على الطريق، فلما رآها عرفها فناداها: على رسلك يا جرادة.

قال الراوي: فلما سمعته أناخت راحلتها ونزلت عنها، وأقبلت إليه وسلمت عليه وقبلت يده، ثم قالت: يا مولاي هل من حاجة أفوز بقضائها؟ فقال حاطب: أي والله يا جرادة وأي حاجة وهي لك عندي بحوائج كثيرة ويكون لك اليد العليا عندي ابداً ما دمت حيًّا. فقالت له: يا مولاي وما هي؟ فقال لها: اصبري عليّ ولا تعجلي. ثم إنه أخرج من جيبه صرة وفتحها وعدَّ لها في يدها مائة دينار، ثم أخرج لها الخلعة من كمه، ثم قال لها: يا جرادة هذا الذهب وهذه الخلعة هبة مني إليك على أن توصلي هذا الكتاب إلى أبي سفيان صخر بن حرب ويكون بعد غروب الشمس، ولا تعلمي أحداً من أهل مكة ولا من أهلك، فأجابته بالسمع والطاعة. وفرحت بالذهب والخلعة فرحاً شديداً.

ثم قال لها: يا جرادة، اعلمي في أي شيء تخفيه؛ فإني أخاف من بني هاشم وبني عبد المطلب لئلا يتعرض أحد منهم

إليك يفتشك ويأخذ الكتاب ويرسله للنبي وأفضح بين يديه والله إن الموت عندي أهون من الفضيحة بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقالت له: يا مولاي أجعلُه في فمي. فقال لها: يفتشونه ويأخذونه. فقالت: يا مولاي أجعلُه في لبد رِجْلِ راحلتي. فقال لها: يفتشونه ويأخذونه. فقالت: يا مولاي أحِلُّ ضفائر شعر رأسي وأجعله فيه. فقال لها: الآن طاب قلبي واطمأنت نفسي بذلك؛ لكن افعلي حتى أنظر ليزداد قلبي سكوناً، فإني خائف أن أُفتضح أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم. فغابت عنه قليلاً ثم حلت ضفائرها وجعلته فيها، وأقبلت عليه. فلما رأى ذلك فرح فرحاً شديداً، وظن أنه وصل إلى مطلوبه ومراده، والله غالب على أمره ليقضي الله أمراً كان مفعولا.

قال الراوي: ثم رجع إلى مدينة رسول الله ﷺ فدخل بيته وسلم على زوجته وأولاده وكان قد أتى لهم بشيء من تمر المدينة، ففرحوا به فرحاً شديداً. فهذا ما كان من أمر حاطب ابن أبي بلتعة.

وأما ما كان من جرادة فإنه ودعها حاطب بن أبي بلتعة

وركبت راحلتها وتوجهت طالبة مكـة المشرفة وأطلقت زمـام راحلتها. فلما أراد الله تعالى انفاذ وعده لنبيه ﷺ أرسل جبريل فهبط عـلى النبي ونادى: السـلام عليكم يارسـول الله، العليُّ الأعلى يقرئك السلام ويخصك بالتحية والاكرام ويقول: أنت غافل والله سبحانه وتعـالى ليس بغافـل، والله عليهم بذات الصدور، اعلم أن حاطب بن أبي بلتعة القيسي من أصحابك قد كتب كتاباً لأهل مكة وغيرها وبما عزمت عليه. وقد أعطاه لامرأة اسمها جرادة واعطاها مائة دينار وخلعة يمانية على أن توصل الكتاب لأبي سفيان صخر بن حرب، وقد جعلته في ضفاير شعرها؛ فارسل ابن العوام وعلي بن أبي طالب يأخذان منها الكتاب ولا يقتلاها فإنها تسلم على يديهما.

قال الراوي: فلما سمع النبي ﷺ غضب غضباً شديداً، ثم قال: أين علي؟ فأجابه: لبيك يا رسول الله ها أنا بين يديك. فقال: يا أبا الحسن امض أنت والزبـير بن العوام سريعـاً، وأدركا امرأة متوجهة إلى مكة اسمها جرادة بموضع كذا، وخذا منها الكتاب الذي أعطاه لها حاطب بن أبي بلتعة القيسي ولا تقتلاها فإنها تسلم على أيديكما، وأمراها أن لا تخبر أهل مكة

بشيء مما نحن فيه. وقال: ادن مني يا أبا الحسن، ـ وكان الزبير قد ذهب إلى بيته لإصلاح أمره ـ فأسر له كلاماً سرا ودعا له بخير. فقبل الإمام يديه ثم أقبل على جواده وركبه وتقلد بسيفه واعتقل برمحه، وإذا بالزبير قد أتى وقبل يدي النبي ﷺ بعد أن دعا لهما بخير، وخرجا مسرعين ولقضاء حاجة النبي عازمين.

قال الراوي: ثم إن الزبير بن العوام رضي الله عنه استأذن الإمام علي رضي الله عنه في اللحاق بها فأذن له، فهمز جواده فخرج به كالريح العاصف فأدركها. فلما قرب منها ناداها: على رسلك يا جرادة تمهّلي. فلما سمعته أناخت راحلتها ونزلت عنها، ونظرت إليه وعرفته، فأقبلت تسعى إليه، فترجل عن جواده، فسلمت عليه وقبلت يده، وقالت: يا أخا القرابة والعشيرة هل لك من حاجة؟ قال: نعم. فقالت: وما هي؟ فقال: يا جرادة، ناوليني الكتاب الذي أعطاه لكِ حاطب بن أبي بلتعة القيسي. فقالت: يا مولاي ومن هذا الذي ذكرته وأنا لا اعرفه ولا رأيته وها أنت وراحلتي وما عليها. ثم تأخرت فعند ذلك تقدم الزبير إلى راحلتها وفتشها من أولها إلى آخرها فلم يجد فيها شيئاً. فتأخر عنها وارادت أن تودعه وتسافر، فقال لها الزبير: اصبري حتى يأتينا الإمام علي بن أبي طالب

كرم الله وجهه. فلما سمعت بذكر الإمام علي ارتعدت فرائصها وتغير لونها.

قال الراوي: فبينما هما في الكلام وإذا بالإمام قد اقبل كالأسد الدرغام فلما دنا منها أقبلت إليه وسلمت عليه وقبلت صدره ويده فترجل عن جواده وقال لها: يا جرادة ناوليني الكتاب الذي أعطاه لك حاطب بن أبي بلتعة القيسي. فقالت: يا مولاي لم يكن لهذا الأمر مراسل سَلْ ابنَ عمك الزبير.

قال الراوي: وكان جواب ابن الزبير لدى سؤال عليّ كرم الله وجهه: يا أبا الحسن فتَّشت راحلتها فما وجدت شيئاً. فالتفت إليه الإمام رضي الله عنه وقال له: اعلم يا زبير أن ابن عمي محمداً ﷺ لم يقل إلا عن جبريل عن رب العالمين عزّ وجلّ، ولكن تأخر عنها، يا زبير، حتى أنظر إلى صدق ابن عمي محمد عليه الصلاة والسلام وجبريل عليه السلام.

قال الراوي: فلما سمع الزبير ذلك تأخر عنها وتقدم الإمام إليها وقال: يا جرادة أتعرفينني؟ فقالت: أي، والله، حق المعرفة، ولا أنكر منك شيئاً. فقال لها: مَنْ أنا؟ فقالت له:

أنت الإمام علي بن أبي طالب. فقال: صدقت فيما تقولين، فاسمعي ما أقول ودعي عنك كثرة الفصول وأشار إليها بهذه الأبيات يقول:

جرادة حلي الشعـر ذا بتمهل ولا تنكري شيئاً فإني أنا علي
ومنه اطلعي لي ما يكون مخبا يا من رسول الله حقا اسر لي
كتـاب سرىَ لاعدائنـا يـرى يخبرهـم فيه عن أمر له جـلي
ولا تتـأني فـالحسـام مجـرد فراسك ارميـه وللنار تصـطلي
وبعـد فنطقـاً عاجـلا بشهادة لرب العلى والمصطفى خيرمرسل
تفوزي بجنات وحور تزينت وولدانها الحسن والحور تنجلي
وتحظي بخير العـالمين محمـدا وأصحابه أولي الوفا والتفضل

قال الراوي: فلما سمعت جرادة تقدمت إلى الإمام رضي الله عنه، وقالت له: يا مولاي مَنْ أخبرك بذلك؟ فقـال لها الإمـام: أخبرني ابن عمي محمـد عليه الصـلاة والسلام عن جبريل عليه السلام عن رب العالمين. قالت: صدقت يا مولاي لا شك بعد يقين، ولا كفر بعد إيمان، امدد يدك فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً رسـو!، الله وأنـك وليٌّ ذو العلم واليقين. ثم أخـرجت الكتاب و اولته

وقالت: هداك الله تعالى كما هداني بجوده وكرمه على يدك الكريمة، أحسِنْ لي بأمر واحد من بعض فضائلك العميمة فقال لها الإمام: وما هو؟ فقالت: الأمان. فقال: أبشري فإنك في أمان الله تعالى وأمان رسوله في الدنيا والآخرة من عذاب الله؛ ولكن يا جرادة إن لي عليك شرطاً واحداً. فقالت: وما هو؟ يا مولاي؟ فقال لها: لا تخبري أحداً من أهل مكة ولا من أهلك حتى تنظري سيد المرسلين فإن خالفت وأخبرت به أحداً فقد خالفت الله ورسوله، وإنه لذنب عظيم. فقالت: يا مولاي، لك عليَّ ذلك. ثم قبلت يديه فدعا لها بخير وأشار إليها بالمسير، فركبت راحلتها وأفلتت زمامها.

ثم إن الإمام رضي الله تعالى عنه أقبل على الزبير وقال له: يا زبير كيف نظرت إلى صدق رسول الله عليه الصلاة والسلام وصدق جبريل عليه السلام عن رب العالمين جل وعلا؟ فأقبل الزبير إلى الإمام وقبل صدره وقال: يا أبا الحسن اجعلني في حل مما تكلمت به فيما لا اعلم. فتبسم الإمام علي رضي الله عنه وقال: أنت في حل من ذلك كله يا ابن العمة. ثم سارا راجعين بالكتاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وهما فرحان

مستبشران بقضاء حاجة النبي صلى الله عليه وسلم ونطق عند ذلك لسان يقول:

قضينا حاجة المختار سرا وفزنا بالأجور وبالثواب
وأسلمت الكريمة ثم نالت عطاء وافراً بين الحساب
وعاشت في أمان واكتساب من الخيرات في أبقى ثواب
وأبدت نصحها من غير خوف بإظهار الكتاب مع الجواب
فآتاها من الرحمن فضل جزيل ليس فيه من ذهاب
وهذا كله من أجل طه نبي جاء يدعو للصواب
له الأشجار جاءت من بعيد فأيد نطقها صدق الخطاب
وكم للمصطفى من معجزات له شهدت بذلك والكتاب

قال الراوي: ثم دخلوا على النبي عليه الصلاة والسلام فسلموا عليه وقبلوا يديه وناوله الإمام علي كرم الله وجهه الكتاب ثم قرأه عليه. فغضب عند ذلك رسول الله عليه الصلاة والسلام غضباً شديداً لأمر الله تعالى، ثم أمر بلالاً رضي الله تعالى عنه أن ينادي: الصلاة جامعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأقبلوا إليه مسرعين ولأمره طائعين حتى ضاق المسجد بأهله. فصلى بهم النبي عليه الصلاة

والسلام ركعتين، ثم دعا، ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم ذكر نفسه الزكية الطيبة الكريمة فصلى عليها، ثم ذكر الأنبياء فصلى عليهم، ثم قال: أيها المسلمون الحاضرون أيكم كتب هذا الكتاب لأهل مكة يخبرهم بأمر الله تعالى وبما عزمنا عليه من غير إذن من الله تعالى ولا من رسوله فليقم طائعاً لله ورسوله أراه وأعرفه، وإلا أقامه جبريل عليه السلام كرهاً بأمر رب العالمين.

ذكر إقرار حاطب بن أبي بتلعة القيسي بما فعل بين يدي النبي عليه الصلاة وازكى السلام وهجرته صلى الله عليه وسلم وأصحابه له وذكر توبته وقبولها ببركة النبي صلى الله عليه وسلم ودعائه ونزول جبريل عليه الصلاة والسلام واعلامه بقبول توبته من الله تعالى

قال الراوي: فلما سمع الناس كلام النبي عليه الصلاة والسلام ماج بعضهم ببعض وماج المسجد بمن فيه. فعند ذلك قام حاطب بن أبي بلتعة وهو يرعد كالسعفة في يوم ريح عاصف وقال في نفسه: والله لقد وددت لو أن الأرض تبتعلني

في تلك الساعة وقد هممت أن أهيم على وجهي فلم أجد لذلك سبيلا.

ثم تقدم حاطب بن أبي بلتعة القيسي حتى صار بين يدي النبي عليه السلام فنادى: السلام عليك يارسول الله. فرد النبي عليه السلام ثم قال له: من أنت أيها الرجل؟ فقال له: يا رسول الله أنا حاطب بن أبي بلتعة القيسي. فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: أنت الذي كتبت هذا الكتاب؟ فقال: نعم يا رسول الله. فقال: ما حملك على مخالفة الله ورسوله وإفشاء سره من غير إذن الله ورسوله؟ فقال له: اعلم يا رسول الله أني مررت في بعض أسفاري على أهل مكة فأضافوني وأكرموني فأردت أن أتخذ بهذا الكتاب إلى عندهم يداً مكافأة عن إكرامهم لي، ففضحني الله تعالى بالوحي إليك. وها أنا مقر بذنبي، ممتثل بين يديك؛ فافعل بي ما يرضي الله ورسوله. أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو من الذنب العظيم، وأتوب إليه توبة عبد ظالم لنفسه ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا حياة ولا نشوراً. واعلم يا رسول الله أني ما كفرت بعد إسلامي، ولا نافقت بعد إيماني، وكل شيء بقضاء الله وقدره. وجعل يبكي وينتحب بين يدي رسول الله عليه السلام.

قال الراوي: فرفع النبي ﷺ رأسه وقال: يا هذا الرجل، اذهب إلى منزلك وابك على ذنبك وخطيئتك فإني لا اتكلم فيك إلا بأمر الله تعالى فهو يحكم بما يشاء وهو خير الحاكمين ثم إن النبي ﷺ أمر الصحابة والأنصار أن لا يختلطوا معه لا في أكل ولا في شرب.

قال الراوي: فلما رأى ذلك حاطب بن أبي بلتعة القيسي من النبي ﷺ استأذنه في الانصراف إلى منزله فأذن له، فخرج باكياً حزيناً نادماً على فعله حتى دخل منزله وأخبر زوجته بذلك، فبكت بكاء لبكائه وحزنت لحزنه. ثم عمد إلى حبل من الصوف كان لجواده فربط نفسه في شجرة مغروسة في منزله، وحلف على نفسه لا يأكل ولا يشرب ولا ينام ولا يحله أحد حتى يرضي الله ورسوله عنه أو يموت صبراً أو أسفاً. ثم أخذ في البكاء والنحيب وزوجته وأولاده حوله يبكون ويتضرعون إلى الله ويدعون له بالتوبة والغفران والرضا من الرحيم الرحمن، فنطق لسان الحال شعراً:

أيا رب عفواً من إساءة من أسا ولم يَرْضَ يا رب بما أنفذ الأمر
وقد تاب من فعل وقول ما جرى فجد يا كريم العفو له الوزر

ورد عليه المصطفى أكرم الورى   نبي أتانا بالنعيم يبشر
وسامح وجُدْ وامنُنْ عليه بتوبة   فإنك أنت الله للكسر يجبر
واجمع له شملاً يحبه قبيل موته   فإنك مولانا رحيم وتغفر
تجاه الذي أضحى لمكة فاتحاً   وأرسلته للناس بالحق ينذر

قال الراوي: ولم يزل حاطب بن أبي بلتعة يبكي وينوح على نفسه ويتضرع إلى الله تعالى وزوجته وأولاده يبكون وهم لا يفارقونه ولا يأكلون ولا يشربون حتى ضعفت قوتهم وتغيرت الوانهم وانتحلت اجسامهم. فنظر الله تعالى إليهم بعين الرحمة ورحم حاطبا وقبل توبته وأقال عثرته وغفر ذنبه. فعند ذلك أمر جبريل عليه السلام أن يهبط على النبي ﷺ ويخبره بذلك فنزل عليه وناداه: السلام عليكم يا رسول الله، العلي الأعلى يقرئك السلام ويقول: اقرأ. قال: يا أخي وما اقرأ؟ قال: ﴿قل يا عبادي الذين اسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً أنه هو الغفور الرحيم﴾. واعلم أن الله قد جاد بكرمه وفضله ورحمته على عبده حاطب بن أبي بلتعة القيسي وقبل تضرعه وبكاءه، وقبل توبته، وغفر له اكراماً لك، فإنه من أصحابك. فارسل إليه مَنْ يبشره بالتوبة وقبولها ويأتون به إليك، فاستغفر له وادع له وللمسلمين ثم

عرج جبريل عليه السلام من وقته إلى السماء.

فعند ذلك فرح النبي ﷺ وأمرهم أن يتوجهوا إليه ويبشرونه بقبول توبته. فأجابوه بالطاعة، فأقبلوا مسرعين وإلى توبته مبادرين. فلما أتوا إلى منزله فسمعوا بكاءه ثم نادوا: ارفق بنفسك وامسك عن البكاء والنواح ولك البشارة من رسول الله صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام عن رب العالمين جل وعلا بالتوبة وقبولها بالمغفرة والرحمة، وقد رحمك بجوده وكرمه، ونحن إخوانك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما سمعت زوجته وأولاده رحبوا بهم. فلما نظر إليهم حاطب صرخ صرخة عظيمة كاد أن يفارق الدنيا وخر مغشياً عليه. فتقدم إليه الإمام علي رضي الله تعالى عنه ونضح الماء على وجهه، فأفاق، ثم حلّوه من الشجرة، وسلموا عليه وصافحوه وعانقوه وبشروه بالتوبة وقبولها من رسول الله ﷺ ثم أمر الإمام علي رضي الله عنه زوجته أن تأتيه بآنية من الماء فتوضأ واغتسل ولبس ثياباً نظيفة وصلى ركعتين شكر الله تعالى على ما أولاه من نعمه وكرمه وجوده، فنطق عند ذلك لسان الحال:

جاء الثواب مع الغفران الكرم   إلى الذي قد أتى بالذنب والجرم

وجاد رب السما من فضله كرما على المسيء الذي قد حل في الندم
سبحانه من إله واحد صمد معطي العطايا ولم يعط ولم ينم
قد خصنا برسول الله سيدنا من جاءنا داعياً بالفضل والكرم
وكان اشجعهم في كل معركة والقلب منه بطول الدهر لم ينم
وخصه الله ربِ العرش خاتما بمعجزات فلا تخطى من القدم

ذكر مسيره بالعساكر والقبائل والعربان وبيان معجزاته في الحضر والسفر

واين هو طالب وقاصد

قال الراوي: ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم منادياً ينادي في سائر القبائل والعربان بالرحيل فارتحلوا من أرض المدينة الطيبة الامينة، وكان ذلك في النصف من شهر رمضان. فسار النبي صلى الله عليه وسلم بالعساكر والعربان والجيوش إلى أن وصلوا وادياً، وإذا بغبرة قد طلعت عليهم. فوقفوا ينظرون ما تحتها؛ فإذا هي قد انكشفت عن عشرة فوارس ليوث عوابس، مقدمهم رجل طويل القامة عظيم الهامة شجاع في الحرب والقتال وملاقاة الفوارس والأبطال وهو حسين

الفـزاري. فلما قـرب من النبي صـلى الله عليـه وسلم هـو وأصحابه ترجلوا على خيولهم وأقبلوا مسرعين وإلى رسول الله ﷺ قاصدين ثم أتوا إليه وسلموا عليه وقبلوا يديه فرد عليهم السلام ورحب بهم وأمرهم بالرجوع إلى خيولهم فركبوا وساروا أمامه. فبينما هم كذلك إذ أقبل عليهم العباس بن مرداس السلمي وصحبته عشرة آلاف فارس ليوث عوابس. فلما قربوا من النبي صلى الله عليه وسلم، تـرجلوا عن خيولهم وأقبلوا مسرعين وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قاصدين، وكان معهم خمس رايات معقودة على رايات الجاهلية لا ينكـرون عليها: الراية الأولى بيد العباس مقدمهم، الثانية بيد صبفوان وكان بطلاً شجاعاً، والثالثة حاملها الضحاك، الرابعة بيد زيد وكان بطلاً شديداً، الخامسة بيد جزعة.

. قال الراوي: ثم نزل النبي صلى الله عليه وسلم في وادي عفـان، ونزلت القبـائل والعـربان حـوله حتى امتـلأ الوادي بالجيوش والعساكر. فعند ذلك التفت صلى الله عليه وسلم إلى حصين فقال: لبيك يارسول الله ودنا منه وقبل يده الشريفة، فقال له: يا حصين ما تنظر إلى العباس بن مرداس السلمي كيف أتى إلى نصرتنا في عشرة آلاف فارس، وأنت قد جئت

إلينا في عشرة فوارس. فقال حصين: يارسول الله اقبل عذرنا لأنه لم يأتنا من عندك رسول ولا كتاب، والذي أرسلك بالحق بشيرا ونذيراً لو علمنا بهذه الغزوة ما تركنا في الحي غير النساء والصبيان ومَنْ لا طاقة له على القتال. فشكره النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك ودعا له بخير. فقال: يارسول الله إن في ديارنا من تزيد عدتهم عن عشرين ألف فارس مستعدين للجهاد في سبيل الله تعالى بين يديك؛ فإن أذنت لي رجعت وأتيت إليك بهم عاجلاً. فجازاه النبي صلى الله عليه وسلم خيراً، ودعا له ولأصحابه بكل خير وسلامة وغنيمة، وقال له: يا حصين جعل الله فيك وفي قومك الخير والبركة وفيك الكفاءة إن شاء الله تعالى لكل شدة وهامة.

قال الراوي: فلما سمع عباس بن مرداس السلمي كلامه مع النبي صلى الله عليه وسلم ودعاءه له ولأصحابه وقيامه بكل خير وغنيمة، داخَلَهُ الحسد والغيرة ولم يقدر بكلمة في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم، بل انتظره حتى انصرف من عنده، وأقبل حتى أتاه في خيمته فسلّم عليه، فرد عليه السلام ورحب به ثم قال له العباس: يا حصين. فقال: لبيك يا عباس. فقال: اليوم تفتخر علينا بعددكم وكثرتكم ونحن

أقوى منكم من عند العرب وأجود كفؤا وأعلى نسبا واكـراماً فقال له حصين: كذبت والله يا عباس قد خاب أملك وسعيك، اما وإن حصيناً أضربُ منك بالسيف وأقرى منـك للضيف وأفرسُ منك يا عباس ومن جميع بني سليم وصعصعة وخثعم.

قال الراوي: فغضب العباس من كلامه غضباً شـديداً، فقال: لا أم لك يا حصين، لمثلي توجُّه بهذا الكلام وأنا أفرس منك يا حصين ومن جميع فزارة وذبيان عن آخرهم أتذكـركم عند الخندق فقال له الحصين: كأنك تعايرنا يـوم هربت من سيف الإمام علي رضي الله عنه، ثم نهض قائماً وأقبل على جميع العساكر والعربان ونادى بأعلى صوته: معاشر القبائل والعربان هل فيكم من ثبت لسيف الإمام علي بن أبي طالب وحملاته في الجاهلية والإسلام؟ فأجابوا عن آخرهم وقالوا: يا حصين ما ثبت له أحد في الجاهلية إلا قتله مثل عمرو بن ود العامري وعمر بن مرحب اليهوي الخبيري وأمثالهم. فقال العباس: يا حصين ما ذكرت لك ذلك إلا لأنك يوم غزوة الخندق كنت في عشرة آلاف فارس وقد سددت الطريق وحاصرت رسول الله صلى الله عليه وسلم في مدينته، فلما هداك الله للإسلام جئت لنصرته في عشرة فوارس.

قال الراوي: فغضب حصين من كلامه غضباً شديداً وامتلا غيظاً ثم دخل خيمته وأفرغ عليه لامة حربه وتقلد بسيفه واعتقل برمحه وركب جواده.

قال الراوي: فلما رآه العباس بن مرداس اقبل إليه بسرعة إلى خيمته وأفرغ عليه لامة حربه وتقلد بسيفه واعتقل برمحه وركب جواده، وأقبل كل واحد منهما يريد صاحبه فارتجز العباس بهذه الأبيات:

سار دونك ضربا بالحسام المهند وطعنا برمح ليس يخطى المضارب
بيد فارس شجاع ذي عزيمة ومضرم نار الحرب عند المضارب
لقد طال ما لاقى العدا بمهند وصال على الابطال صولة غالب

فاجابه حصين على شعره يقول:

دع الكلام ونازل فارساً بطلاً يرمي العدا ولا يخشى من العطب
قد طال ما صال في يوم القتال به وكم في طلى الاعداء من وصب

قال الراوي: فما استتم كلامه حتى صرخ العباس بن مرداس السلمي، وكذلك حصين، وأقبل كل منهما على صاحبه، وتهاجما وتضاربا حتى تطاولت إليهما الأعناق وامدت نحوهما الأحداق، ولم يجسر أحد من العرب أن يقربهما. وكثرت

بينهما الضربات والزفرات، ووصلت إلى مسامع النبي صلى الله عليه وسلم فنادى: أين علي بن أبي طالب. فقال: لبيك يا رسول الله. فقال: ما هذا الضجيج الذي أسمعه؟ فقال: يا رسول الله هذا حرب وقع بين بني فزارة وبني سليم.

قال الراوي: فخرج رسول الله صلى عليه وسلم ينقل خطواته الكريمة مسرعاً راجلاً غير راكب إلى أن وصل إليهما. فلما نظرا إليه أمسكا عن خيولهما إكراماً له صلى الله عليه وسلم واحتراماً. فلما دنا منهما سلم عليهما فردا عليه السلام، فقال: يا هذان أتريدان أن تفعلا في الإسلام ما كنتما تفعلان في الجاهلية؟ لا كان ذلك أبداً. أقسمت عليكما أن تلقيا سيوفكما، وتتصافحا وتتعانقا؛ فإن المصافحة تنزع الغل من قلوبكما، والمعانقة تزيد الحب والمودة بينكما. ففعلا ذلك. ففرح النبي صلى الله عليه وسلم ودعا لهما بكل خير وسلامة. ثم نهض العرباض بن سارية السلمي وقال: يا رسول الله إنك تبعدنا وتدنينا. فقال العباس بن عبد المطلب: ياعرباض لولا أن محمدا منا لافتخرت بنو سليم على بني هاشم إلى يوم القيامة؛ فعند ذلك أمر النبي صلى الله عليه وسلم منادياً ينادي في القبائل والعربان: بنو سليم يكونون في الغزوة المباركة في مقدمة

العساكر لا يتقدم عليهم أحد. فأجابه جميع القبائل والعربان بالسمع والطاعة.

قال الراوي: ثم أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أن ينادى في العربان والقبائل بالرحيل، فارتحلوا. وسار بهم النبي صلى الله عليه وسلم حتى نزل في الجحفة، وكان يوم شديد الحر فأصاب الناس فيه عطش شديد فبلغ علم ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمر بلال أن ينادي في سائر القبائل والعربان: ألا مَنْ كان صائماً فليفطر ولا جناح عليه. فلما سمع الناس بذلك هالهم وأتوا إليه مسرعين ولأمره طائعين، وقالوا له: يا بلال كيف أمرنا بفطر هذا الشهر العظيم؟ فقال لهم بلال رضي عنه: هلموا معي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فساروا معه إلى حضرة النبي قاصدين.

قال الراوي: ثم سلموا عليه فرد عليهم السلام وحب بهم وقال: يا معاشر المسلمين والمهاجرين والأنصار وسائر القبائل والعربان، اعلموا أن الله تعالى بعثني للملة الحنيفة المرضية، وأن الله تعالى ما جعل عليكم في الدين من حرج. ثم قرأ قوله تعالى ﴿فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام آخر

يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ الآية.

قال الراوي: ففرح المسلمون بذلك فرحاً شديداً. ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم رفع القدح إلى فمه الشريف وقال: ألا فانظروا فإني مفطر إن شاء الله تعالى. ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم: إن خيار أمتي الذي إن سافروا فطروا وللصلاة قصروا.

قال الراوي: فاستبشر المسلمون بذلك وافطروا، وزال عنهم العطش والعناء وصاروا في أمان وهناء. فنطق عند ذلك لسان الحال يقول:

نادى عن الناس بالمختار إعسار واقبل الخير والافضال مدرار
وأفطر الناس من أجل الكريم له سبحانه غافر الذنب ستار
وصار عيشهم صاف وعيشهم فضلاً وجوداً كذا عفو وإيسار
سبحانه واحد فرد ومقتدر منزه عن شريك وهو قهار
هذا لأجل الذي في الحر ظلله غمامة ثم طير ثم أشجار
والضب كلمه والجذع له حن والبدر شق له ما فيه أشجار
والصخر لان له والرمل لا اثر والماء فاض بسكب وهو مدرار
من ذا الذي في الورى يا صاح كلمه ضب الفلاة وأشجار واطيار

وخصه ربنا من فضله كرما ... ومن الفضائل عما جل مقدار
فالرعب شهرا ويلحقه مدادا ... وهو الشفيع لمن حفت له النار
والأرض صارت لها من تربها طهر ... ومسجد وله صحب وانصار
له الغنائم حلت دائماً أبداً ... وهو الرسول له الحجاج قد ساروا
صلى عليه إله العرش ما طلعت ... شمس وقد زها روض وأشجار

وأقام صلى الله عليه وسلم في الجحفة بالجيوش والعساكر ثلاثة أيام، فجعل الناس يموج بعضهم في بعض، ويقولون: ترى أين يسير بنا النبي صلى الله عليه وسلم، فلو علمنا ذلك لاطمأنت قلوبنا وأنفسنا، فإن لباس الحديد والسلاح أثقلنا وأضعف قوانا، وكذلك الخيل فإنها لم تزل مسرجة ملجمة، فلو علمنا أن العدو الذي هو قاصده بنا قريب، صبرنا على حَمْل الحديد، وإن كان بعيداً نزعنا ما كان علينا من السلاح واللباس واسترحنا. فوثب بين العساكر رجل يسمى كعب بن مالك الأنصاري وقال لهم: يا قوم أنا اتعرف لكم الآن أين يريدينا النبي صلى الله عليه وسلم. ثم أقبل متوجهاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقبل يديه فرد عليه السلام. فبعد الاستئذان قال:

قضينا من تهامة كل ريبٍ ... وخيبر ثم أغمدنا السيوفا

نخـبرهـا ولـو نـطقت لقـالت   قـواطـعهنّ دوسـا أو ثقيفـا
فلست لحـاضنٍ إن لم تـروهـا   بسـاحـة داركم منـا ألـوفـا
إذا نـزلـوا بسـاحتكم سمعتم   لهـا في اعـظم الاعـدا صريفـا
بـأيدينـا قـواضب مـرهفـات   يُـزِرْنَ المصْطَلين بهـا الحُتـوفـا
نخـبرهم بـأنـا قـد جمـعنـا   عتـاق الخيل والنجب الـطروفـا
نـطيـع نبينـا ونـطيـع ربـاً   رحيـماً بـالـورى بـراً رؤوفـاً
نجـاهـد لا نبـالي من لقينـا   أهلكنـا التـلاد ثم الـطريفـا
بـكـل مهـنـد لَـيْنٍ صقيـل   نسـوقهم بهـا سـوقـاً عنيفـاً

قال الراوي: فلما سمع النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الحسان بكى، ثم إنه صلى الله عليه وسلم تـذكـر الـلات والعزى. فعند ذلك استأذنـه سعد بن مـالك الأنصـاري في الانصراف فأذن له، فأقبل راجعـاً إلى قومـه، فأسرعـوا إليه قاصدين وقالوا له: ما رأينا النبي صلى الله عليه وسلم كلمّك. فقال لهم: والله لقد علمت أين قاصد وإلى أي الجهات يريد. فطيبوا أنفسكم وقلوبكم والله ما يريد بنا إلا مكـة المشرفة. فقالوا له: من أين علمت ذلك: فقال: يا قوم إني لما قلت ونسبي اللات والعزى جميعاً تبسم ضاحكاً، فعلمت أنه صلى الله عليه وسلم يفرح إذا كسرت اللات والعزى والهبل الأعلى

والأصنام كلها ونأخذ ما عليها من الحلى والحلل والزينة والذهب والفضة. ولما قلت و«تقتسم الحسان بكل وجه» فعلمت أنه يحزن على نساء قريش فإن فيهم اقاربه وعشيرته، فطيبوا نفساً وقروا عينا، فما يريد بنا إلا مكة المشرفة. فنطق عند ذلك لسان الحال يقول:

فهمنا من المختار ما قد أسره ... بتوفيق رب العرش واحد واحد
وقد كانت العربان من كل جهة ... لقى ضربه من شدة السير واحد
بهم تعب من كل ما يحملونهم ... كذاك دروع من حديد وزائد
ومال عليهم ما بهم فاشتكوا عنا ... فبارز الأشعار أشعر واحد
يقول له أنا سنملك مكة ... أتى خيمة المختار في زي ناشد
بكعب يسمى بابن مالك اصله ... ويعملوا لنا وقائع شاهد
يقول له إنَّا سنملك غنيمة ... فجاء بدمع عند ذلك جائد
فاظهر أسراراً لنا ولجمعنا ... علينا بان العز وخير المقاصد
لقد أنعم الرحمن بالمصطفى لنا ... وأرسله فينا بشيراً وشاهد
فلولاه ما كانت المروة والصفا ... ولا البيت والاركان من كل قاصد
ولا عرفات مع منى ثم موقف ... ولا مشعر للنحر فيها بقاصد
ولولاه ما كان الحطيم وزمزم ... ولا حجر في ركن بيت لـ ارد
نبي كريم ماجد ومفضل ... فالله كم أغنى وأهدى لـ فد

قال الراوي: ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم أمر منادياً ينادي في سائر القبائل والعربان بالرحيل فأجابوه بالسمع والطاعة وارتحلوا. وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى آخر النهار قريباً من مكة المشرفة فنزل وأمر القبائل بالنزول فنزلوا، وضربوا الخيام والقباب وقد طووا الوادي طولاً وعرضاً وكل ناحية ومكان. ثم أذن بلال بصلاة المغرب وإقام الصلاة فصلى بهم النبي صلى الله عليه وسلم. ثم أقبل كل سيد على خيمته وقبيلته فأكلوا وشربوا وعلفوا خيولهم واستراحوا إلى أن أذن العشاء الأخير، فصلى بهم النبي صلى الله عليه وسلم صلاة العشاء وانصرفوا إلى خيامهم ولهم ضجيج بالتسبيح والتهليل. فلما استقر بهم القرار وجلسوا واستراحوا، أمر النبي صلى الله عليه وسلم منادياً ينادي في سائر القبائل والعربان: لا يبقى أحد إلا ويوقد عند خيمته ناراً أو نارين أو ثلاثة أو أربعة أو أكثر إن استطاع فأجابوه بالسمع والطاعة امتثالاً لأمره ﷺ وكان جبريل عليه السلام قد نزل عليه وأمره بذلك بأمر الله عزّ وجلّ. وكان اجتمع مع النبي ﷺ في هذه الغزوة اثنتان وسبعون قبيلة كل قبيلة تزيد على عشرة آلاف فارس ليوث عوابس.

قال الراوي: ثم إن العباس بن عبد المطلب لما جن الليل

نظر إلى تلك القبائل والعربان وإلى كثرة النيران والجيوش وهي من الجبل إلى الجبل فقال في نفسه: والله إن دخل ابن أخي محمد ﷺ بهذه العساكر مكة لا يدع فيها كبيراً ولا صغيراً إلا اهلكه، ولا فارساً إلا قتله، ولا شجاعاً إلا دمره وقطع خبره، ولا مالا إلا أخذه، ولا امرأة إلا سباها، والله لا يبقى بعدها بقية على قريش إلا بددهم وهم بنو أعمامنا وعشيرتنا وأقاربنا.

قال الراوي: ثم وثب إلى بغلة النبي صلى الله عليه وسلم الدلال التي اهداها له المقوقس بن راعيل ملك مصر والاسكندرية، فأسرجها واستوى على ظهرها، وسار بها حتى نزل على العساكر، ونزل عنها وأخذ لجامها في يده، وجلس على قارعة الطريق ينتظر أحداً خارجاً من مكة أو قاصداً إليها.

ذكر رجوع أهل مكة ثاني مرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ومداهنتهم له وطلبهم تجديد المعاهدة والمعاقدة قبل أن يصل إليه خبر الخزاعيين ليكفوا شر قتاله وقد خاب أملهم ومسامعهم وضلوا ضلالاً مبينا.

قال الراوي: لما قتل بنو بكر بن وائل الخزاعيين وغنموا ما كان معهم أهل مكة، وكان قد مضى من المعاقدة والمعاهدة سنة

وثمانية أشهر، لحق أهل مكة وساداتها خوف شديد من النبي صلى الله عليه وسلم، وملأ الله سبحانه وتعالى قلوبهم خوفاً ورعباً شديداً حتى امتنعوا عن الطعام والشراب، فجعلوا يترددون على دار الندوة ثلاثة أيام ليلاً ونهاراً. فبينما هم كذلك إذ اتفق رأيهم ومشورتهم على أن يرسلوا أبا سفيان صخر بن حرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثاني مرة ليجدد لهم المعاهدة قبل أن يصل إليه خبر قتل الخزاعيين فيكفوا قتاله. فأجاب بعضهم بعضاً أن هذا الرأي حميد.

قال الراوي: ثم أنهم اخبروا أبا سفيان بذلك وقالوا له ما يكون رسول هذه القضية إلا أنت. فامتنع عن المسير إلى النبي عليه الصلاة والسلام ثانياً. وقال لهم: يا قوم إني ما خلصت من محمد في أول مرة إلا بالملاطفة في الكلام والمداهنة.

قال الراوي: فجعل سادات قريش وغيرهم يبذلون الأموال والأنعام ويرغبونه حتى أجابهم إلى ذلك، وقال لهم: يا قوم أريد منكم أن يكون معي رجلان من عشيرتي؛ إن غدرني محمد وقتلني يأتيان إليكم ويخبرانكم، وإن سلمت سلمنا جميعاً. فأجابوه على ذلك بالسمع والطاعة وقالوا: خذ معك من الرجال ما تختار.

قال الراوي: ثم إن أبو سفيان اختار رجلين أحدهما اسمه حكيم بن حزام، والآخر عمرو بن عبد الدار، وذهب كل واحد إلى منزله، وافرغ عليه آلة حربه، وودّع أهله وأتى إلى أبي سفيان وأصحابه. ثم ودّعوا السادات وخرجوا بعد غروب الشمس حتى لا يعلم بهم أحد من بني هاشم أقارب النبي صلى الله عليه وسلم.

قال الراوي: ولم يزل أبو سفيان وصاحباه عابرين حتى أشرفوا على النيران. فالتفت أبو سفيان إلى صاحبيه وقال لهما: ما تريان؟ قالا: نيراناً كثيرة وعساكر وجيوشاً قد أخذت من الجبل إلى الجبل. فقال: أنا أرى كذلك، يا ليت شعري ما تكون هذه النيران والعساكر؟ ما اظن أن ههنا عرباناً نازلين. فقال حكيم بن حزام: لعل بني خزاعة استنجدت ببعض العربان فاستنجدوا بهم علينا. فقال لهما أبو سفيان: تباً لخزاعة وتعساً. فلو كانت هذه الجيوش للمقوقس بن راعيل ملك اسكندرية والقبط لما اعتنيت بها، ولو كانت من انطاكية والشام لم اسأل فيها، ولو كانت لكسرى انو شروان ملك العراق والعجم لا أبالي بها، ولكن أخاف أن تكون هذه العساكر والجيوش لمن ظهر فينا وبأسه شديد ويزعم أنه نبي وينزل عليه

الوحي من السماء الذي يرى ولا يرى وهو بـالمنظر الأعـلى. والغـالب أن هذه الجيـوش مـع محمـد بن عبـدالله بن عبـد المطلب. فعند ذلك نطق لسـان الحال مـترجماً بـالمقال ينشـد ويقول:

إن كـانت النيران للعـرب كلها   وأهل ملوك الأرض ما كنت افزع
ولكن أخشى أن تكـون لأحمـد   فيا ذلّنا ويا ويحنا كيف نصنـع
أأتـرك أصنـامـاً كبـاراً عبـدتهم   مع الهبل الأعـلى ولا ثَمّ مرجـع
وأتـرك جميـع الأرض خـيرة لنـا   ولا انثني عـنـها أقـول وأسمـع
إلى أن يشـاء رب السماء بعنـاية   يكـون لنـا فيهـا صـلاح فيتبـع

قال الراوي: فلما استتمّ كلامه حتى سمع هاتفاً يهتف ولا يرى شخصه مجيبا له بهذه الأبيات:

يا ويح من أضحى بعيداً مخالفا   لخير الورى المبعـوث أنفع نـافع
محمد الهادي الذي شرف الورى   بنـور لـه بـين الـبرايـا سـاطـع
فكن يا ابن حرب تـابعاً ممـانعاً   وكن سامعاً للمصطفى غير راجع
وآمن برب الخلق والأرض والسما   وبالمصطفى المبعوث أشرف طائع

قال الراوي: فلما سمع أبو سفيان كلام الهاتف كتمه عن أصحابه. هذا ما كان منه.

وأما ما كان من العباس فإنه ما زال يكرر الأبيات المتقدم ذكرها، فسمعها أبو سفيان بأمر الله تعالى. فقصد قائلها حتى قرب منه فأبقى سمعه إليه فعرفه لأصحابه: إني سمعت صوت العباس بن عبد المطلب. فسمعه العباس فنادى: ألا يا أبا سفيان، ألا يا أبا حنظلة. فقصده فلما دنا منه ترجّل عن جواده هو وأصحابه، ثم أقبل إليه والقى بنفسه عليه، وتعانقا وتصافحا، ثم إنه جلس أمام العباس يحدثه. فقال أبو سفيان ما وراءك يا عباس من أخبار بن أخيك محمد؟ فقال له العباس: ورائي الداهية الدهما والمصيبة العظمى، وجيش قد ملأ الأرض في طولها والعرض. يا ويل أهل مكة إن صحبهم هذا الجيش؛ لايدع فيها كبيراً ولا صغيراً ولا حراً ولا عبداً ولا امرأة ولا جارية إلا أخذها. فقال سفيان: يا أبا الفضل هذه الجيوش والعساكر كلها لابن أخيك محمد؟ فقال: نعم، ولو طلب اكثر من هذه الجيوش التي تنظرها لأتوا إليه من كل جانب ومكان. فقال أبو سفيان: يا أبا الفضل، وكم معه من القبائل؟ فقال له العباس: معه اثنتان وسبعون قبيلة؛ كل قبيلة تزيد عن العشرة آلاف فارس ليوث عوابس. فقال له: يا أبا الفضل بحق أخيك محمد إلا ما وصفت لي كل قبيلة

ونيرانها حتى أعرفها. فقال له العباس: حبا وكرامة. ثم إنه أخذ برأس أبي سفيان وقال له: انظر هذه النيران لبني سليم وهو عشرة آلاف فارس منتخبون.

قال الراوي: وما زال العباس يصف لـه قبيلة بعد قبيلة حتى وصف كل القبائل والعربان. فقال له أبو سفيان: إلى أين يريد ابن أخيك محمد بهذه الجيوش وما رأيت مثلها أبداً؟ فقال له: ياحمار قريش إن كنت نائماً فاستيقظ، أو إن كنت سكراناً فَأَفِقْ يريد بها مقتكم وكسر اللات والعزى والهبل الأعلى التي تعبدونها من دون الله عزّ وجلّ. وهل أقعـد بي إلى هنا إلا الشفقـة على الأهـل والأقارب عسى أن يـأتوا إليـه مسرعـين ويستجيروا به، لعل أن يعفو عنهم ويصفح؟ قال أبو سفيان: كيف يغزونا ابن أخيك وبيننـا وبينه عهـود ومـواثيق؟ كيف ينقضها ويأتي إلى قتالنا؟ فقال العباس: اسكت ياحمار قريش، النبوة لا تنقض عهداً ولا ميثاقاً. ولكنكم أنتم الذي نقضتم العهد والميثاق بقتلكم الخزاعيين في دار الندوة، وطرحتموهم في البراري والقفار للوحـوش والأطيار، وقـد سلم الله منهم رجلين وأتيا إلى ابن أخي محمد وأخبراه بخبرهم، فأنزل الله قـرآنا أمـره بـالجهـاد فيكم حتى تقـروا لله سبحـانـه وتعـالى

بالوحدانية، ولمحمد ﷺ بالرسالة وبكسر اللات والعزى والأصنام كلها. فاستفق من سكرة الضلالة والجهالة وعبادة الأصنام تسعد في الدنيا والآخرة.

فقال أبو سفيان: يا أبا الفضل لقد أرعبتني وخوفتني وما قتلنا الخزاعيين إلا ليلاً وما علم بهذا أحد من أقاربك. فقال له: اسكت ياحمار قريش، الله الذي لا إله إلا الله هو يعلم ما في الليل والنهار وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة، فلا تطل الكلام.

فقال له أبو سفيان: ما عندك من الرأي فإنك من ذوي الأقارب والعشيرة. أرجع إلى مكة وآخذ أهلي وعشيرتي وأولادي وأموالي وأذهب إلى النجاشي ملك الحبشة أستجير به من ابن أخيك محمد؟ فقال له العباس: ياحمار قريش إن النجاشي أسلم وآمن بالله تعالى وصدق بنبوة ابن أخي محمد عليه الصلاة والسلام. وقد أهدى إليه هدايا كثيرة وأنت إن توجهت إليه وأخبرته أرسلك ومَنْ معك مغلولين بالحديد.

فقال أبو سفيان: فقال يا أبا الفضل أمضي إلى كسرى أنوشروان ملك العجم واستجير به من ابن أخيك محمد؟

فقال له العباس: يابهيم أن كسرى بينه وبين ابن أخي عهود ومواثيق، وقد أهداه هدايا كثيرة وشرط على نفسه أموالاً يجعلها إليه كل سنة. وأنت إن توجهت وأخبرته بخبرك أرسلك أنت ومَنْ معك مصفدين في الحديد.

فقال له أبو سفيان: أمضي إلى المقوقس بن راعيل ملك مصر واسكندرية والقبط. فقال له: ياحمار قريش إن المقوقس قد أهدى إلى ابن أخي محمد ﷺ هدايا كثيرة منها هذه البغلة وجارية قبطية وبينه وبين ابن أخي عهود ومواثيق. وإن توجهت إليه وأخبرته بخبرك أرسلك ومَنْ معك مغلولين في الحديد.

فلما سمع أبو سفيان كلام العباس إلى آخره قال له: يا أبا الفضل ضاقت عليّ الأرض بما رحبت وكيف يكون الرأي؟ فقال العباس: أشير عليك برأي يكون فيه صلاحك وسلامتك إن قبلته مني فقال: وكيف لا أقبله والموت صار بين عيني؟ فقال: أرسل جوادك وسلاحك مع أصحابك إلى زوجتك، وَأْمرهم الرجوع إلى مكة، واركب خلفي على هذه البغلة وأمضي بك إلى ابن أخي محمد أشفعُ لك عنده وأجدُ لك ولأهلك منه الأمان أو يهديك الله تعالى إلى الإسلام فتكتب من الفائزين.

قال الراوي: فقال أبو سفيان: فهذا الرأي حميد. ثم قبّل يديه وأقبل على أصحابه، وخلع ما كان عليه من لامة حربه وأعطاها لأصحابه وقال لهم: اذهبوا بسلامة الله وأمانه. فرجعوا إلى مكة.

وأما أبو سفيان فركبه العباس خلفه، وجعل يطوف به على القبائل والعربان يصفهم له فقال أبو سفيان: أراك طائفاً بي على القبائل والعربان، ما أراك إلا تخوفني وترعبني. فقال العباس: ياحمار قريش أنا خايف عليك من أسد هذه القبائل والعربان ليث بني غالب على بن أبي طالب يراك معي فيقتلك ولا يبالي. فقال له: بحق محمد صلى الله عليه وسلم مُرْ بي على خيمته حتى أراه. فقال له العباس: حبا وكرامة. ثم عطف بالبغلة على نيران بني هاشم.

قال الراوي: قال العباس: فانحرفت بالبغلة حتى لا يراه الإمام رضي الله عنه. وإذا بان لهم خرج وصرخ بأعلى صوته: مَنْ هذا المغير علينا في هذه الليلة المذكورة؟ قال العباس: فأجبته: أنا عمك العباس. قال: ومَنْ هذا الرجل الذي معك الرقيق الساقين كأني أعرفه. وضرب بيده إلى أبي سفيان

وجذبه، فصار بين يديه كالصيد بين قوائم الأسد، ونظر إليه فعرفه فقال له: لا حماك الله ولا رعاك، ومَنْ أخرجك من مكة وقد أمكنني الله منك ومن غيرك. ثم اقبل سريعاً إلى خيمته ليأتي بسيفه ذي الفقار. فالتفت أبو سفيان إلى العباس وقال: يا أبا الفضل الرواح. فلقد سمعت روايح الموت من ابن أخيك علي بن أبي طالب.

قال العباس: فأركبته البغلة وركبت أمامه وضربت البغلة بالسطور، فخرجت بنا كالريح العاصف. فخرج الإمام علي رضي الله تعالى عنه فلم يجد لنا أثراً بل سمع هفيف البغلة وهي تجري بنا فاستقبلها بوجهه، وناداها: يا مباركة يا لددل، إن خطوت بأبي سفيان خطوة شكوتك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال العباس: فوالله ولم يتمّ الإمام عليّ كلامه حتى وقفت ولم تتحرك بنا. فهمزتها بالسقوط فلم تخط خطوة وثبتت كأنها شجرة مغروسة في الأرض. فلما نظرت إلى كرامات ابن أخي علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، نزلت عن البغلة وتركت أبا سفيان وأعطيته لجامها وقلت له: لا تتقدم عن مكانها خطوة تقتل. فقال لي: لا أفعل. ورجعت إلى الإمام فوجدته كالأسد في قومه. فقبلت صدره ويديه وقلت: يا ابن

أخي بحقي عليك وبحق ابن عمك لا تفضحني في أسيري. فقال: حباً وكرامة يا عم. ولكن أين تذهب به؟ فقلت: إلى ابن أخي محمد. فقال: امضِ به في خير وسلامة وأنا معكم.

وأما أبو أبو سفيان فوجدته يرعد من هيبة الإمام علي كالسعفة في ريح عاصف. فأشرت إليه فمضى وصحبني، ومشى الإمام علي رضي الله تعالى عنه أمامنا. فلما قربنا من خيمة النبي صلى الله عليه وسلم وجدناه قائماً يصلي. فجلسنا حتى فرغ من صلاته، فدخل عليه الإمام علي رضي الله عنه وقبل يديه، وكذلك عمه العباس، فرد عليهما السلام ورحب بهما، وقال: من هذا الذي معكما؟ لعله أبو سفيان. قال الإمام علي رضي الله تعالى عنه: هو أبو سفيان صخر بن حرب زوج هند التي بذلت الأموال الكثيرة في قتل عمك حمزة وشقت بطنه ونهشت من كبده ومثلت به يا رسول الله، هذا الذي جمع الجيوش والعساكر لقتالك ومحاربتك يوم الخندق ويوم بدر.

ولم يزل الإمام يعدّ له أفعال أبي سفيان القبيحة وأعماله الرديئة حتى قال عمه العباس: يا أبا الحسن ما أراك إلا تعدد النبي صلى الله عليه وسلم أعمال أبي سفيان. أتريد أن تقتله

أبا حنظله ادخل في الخيمة وأنا اقعد على باب الخيمة لأحرسك من الإمام فإني أخاف عليك منه بعد أن آذيته في الحديث.

قال الراوي: ثم جعل أبو حنظلة يعاتب نفسه ويقول مغروراً: يا أبا حنظلة أين كان احتراسك وحذرك وخوفك من محمد حتى أوثقك عمه العباس في هذا الموضع الخطر؟ هيهات إن سلمت منه وإنما أخرك إلى غد ليعرض عليك دينه، فإن أبيت يضرب عنقك ابن عمه الإمام علي بن أبي طالب ولا يبالي، وإن خلصت من يده لأرمينّه بجيوش لا طاقة له بها ولا قدرة. فقال العباس رضي الله تعالى عنه: لا تعمل يخزك الله وينصرنا عليك وهو حسبنا ونعم الوكيل. وقال أيضاً: هذا الذي أضمرت عليه في نفسك من الشر والفتنة. فقال أبو سفيان: يا أبا الفضل أما علمت أن ابن اخيك يعلم الغيب إلا الساعة؟ فقال له العباس: يا حمار قريش إن الله تعالى أعطى نبيه صلى الله عليه وسلم علم الأولين والآخرين .

قال الراوي: ولم يزل أبو سفيان يعاتب نفسه والعباس يسمعه ولم يعارضه، إلى أن أذن بلال وخرجت القبائل والعربان للصلاة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال له أبو سفيان:

يا أبا الفضل، ما هذا الغلام ينهق كنهيق الحمار؟ فقال له: اسكت ياحمار قريش هذا بلال مؤذن رسول الله ﷺ. فقال أبو سفيان: يا أبا الفضل وكيف الصلاة؟ قال له: قم معي للصلاة حتى تنظر إلى الصلاة وإلى أفعالها.

قال الراوي: قال العباس: قلت في نفسي: لعله يلين قلبه عند قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم أوقفته عن يميني وإذا بالإمام علي رضي الله عنه أحرم عن يمينه. فقلت في نفسي: إن ركع الإمام ولم يركع هذا الحمار قتله الإمام ولا يبالي. فأخذته عن يساري فجعل ينظر يميناً وشمالاً. فقرأ النبي صلى الله عليه وسلم في أول ركعة بعد الفاتحة سورة يس إلى آخرها، فخشعت قلوب الناس لحلاوة قراءته صلى الله عليه وسلم وخشوعه لله عزّ وجلّ، ووجلت قلوبهم وذرفت عيونهم. ثم ركع فركعوا جميعاً. ثم رفع رأسه من السجود واستوى قائماً فرفعوا رءوسهم وقاموا. فقرأ في الركعة الثانية بعد الفاتحة سورة الرحمن إلى آخرها بقراءة ما أحسنها وأحلاها، وصوته بالقرآن يسمعه البعيد كما يسمعه القريب. كل هذا وأبو سفيان واقف كالخشبة المغروسة في الأرض وهو

يقول: يا لعرب العربان يا لها من طاعة عظيمة إن ركع ركعوا معه، وإن سجد سجدوا معه.

قال الراوي: فلما رآه الإمام علي رضي الله تعالى عنه على هذه الحالة أخذته الغيرة الهاشمية على الإسلام والصلاة فضرب بيده الكريمة على عنق أبي سفيان وجذبه حتى صار عنده، ثم اتكأ على رأسه وألصقها بالأرض حتى كاد أن يقضي عليه. ولم يزل متكئاً عليه حتى فرغ النبي صلى الله عليه وسلم من صلاته ودعائه.

قال العباس رضي الله تعالى عنه: فهممت قائماً وأتيت إلى أبي سفيان وخلصته من يد الإمام علي كرم الله وجهه، وتقدمت إلى النبي صلى الله عليه وسلم. فلما نظر أبو سفيان إلى كثرة نور النبي صلى الله عليه وسلم خر ساجداً. فغضب النبي صلى الله عليه وسلم عند ذلك غضباً شديداً وقال: ارفع رأسك يا عدو الله لا ينبغي السجود إلا لله رب العالمين. فوثب عند ذلك الإمام علي كرم الله وجهه وقال: يارسول الله دعني أضرب عنق هذا العدو المبين، فقد ظهر الحق وزهق الباطل.

قال الراوي: قال العباس: فتبسم النبي صلى الله عليه

وسلم عند ذلك وقال: يا أبا الحسن لا تعجل على أبي سفيان بحقي عليك، لعل الله أن يهديه للإسلام. فلما نظر أبو سفيان إلى النبي صلى الله عليه وسلم والإمام علي كرم الله وجهه شاهر سيفه على رأسه نادى: يا محمد كأنك غضبت من فعلي ولولا أني أمرت بذلك في بعض أسفاري على المقوقس بن راعيل ملك مصر والاسكندرية والقبط فدخلت عليه وسلمت عليه فرد عليّ السلام وأضافني وأكرمني وأحسن إليّ، ثم تحدثت معه في أمرك فقال: يا أخا قريش إذا دخلت عليه فاسجد بين يديه؛ فإن غضب لذلك فاعلم أنه نبي حقاً، وإن لم يغضب فاعلم أنه يريد المملكة له ولقومه، لذلك سجدت لك يا محمد.

قال العَباس: ثم رفع صلى الله عليه وسلم رأسه عند ذلك وقال: يا أبا سفيان إلى كم تعبد اللات والعزى والهبل الاعلى وهي حجارة لا تضر ولا تنفع ومصيرها ومن يعبدها إلى النار وبئس القرار؟ أما آن لك يا أبا سفيان أن تقول مخلصاً أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا رسول الله؟ فقال أبو سفيان: يا محمد إلى أين تريد بهذه القبائل والعربان؟ فقال له النبي ﷺ: إلى مكتكم أكسر أصنامكم وآلهتكم ومَنْ

أطاع منكم الله ورسوله نجا، ومَنْ خالف وتولى قُتل ومأواه النار. فقال له أبو سفيان: يا محمد كيف تغزونا وتنقض العهد الذي معنا ومعكم؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: حاشا لله إن النبوة لا تنقض عهداً ولا ميثاقاً، وإنما أنتم نقضتم العهود والمواثيق بقتلكم الخزاعيين في دار الندوة ليلاً وألقيتموهم في الأودية والبراري والقفار وللوحوش والأطيار. وقد أنـزل الله عليّ في ذلك قرآنا وأمرني فيه بالمسير إليكم والجهاد فيكم حتى تشهدوا أن لا إله إلا الله وحـده لا شريك لـه، وأن محمدا رسول الله.

قال أبو سفيان: يا محمد لو توجهت بجيشك هذا إلى ثقيف وهوازن كان أبعد عنا وأكثر لك ولأصحابك غنيمة وأموالاً. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: حتى أدخل مكتكم وأكسر اصنـامكم وهبلكم وأطهر بيت الله الحـرام من الأصنام التي تعبدونها من دون الله تعالى. إن شـاء الله تعالى غزونا ثقيفاً وهوازن وغيرها. يا أبا سفيان قل معي: لا إله إلا الله محمد رسول الله. فقال أبو سفيان: يا محمد لو ملت جيشك هذا إلى نحو الشام والروم لكان اكثر لك ولأصحابك غنيمـة وأسباباً واموالاً. فقال النبي ﷺ: يا أبا سفيان إلى كم تزوغ عن جوابي

وتفوت كلامي؟ قل معي لا إله إلا الله محمد رسول الله. فقال أبو سفيان: دع منك الشام والروم وغيرهما. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إني ناصحك نصيحة عظيمة وهي أن تقول معي اشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. فقال أبو سفيان: هذه كلمة ثقيلة على لساني لا أقدر أن اقولها. أما ذكرك فلا أقدر أن اقوله وإن في قلبي منك حرارة عظيمة، فلا اذكرك أبداً.

قال الراوي: فلما سمع النبي صلى الله عليه وسلم من أبي سفيان اشتد غضبه لله تعالى حتى ظهر الغضب في وجهه، عند ذلك قال الإمام علي رضي الله تعالى عنه: دعني أضرب عنقه، فقد بان البرهان ونطق الكتاب بالعنوان.

قال الراوي: فعند ذلك تقدم إليه عمه العباس، ووكزه بيده الكريمة في خاصِرته حتى كاد أن يقضي عليه وقال: يا حمار قريش رأسك منتظر كلام رسول الله ويضرب به عنقك. فقال له أبو سفيان عند ذلك: يا أبا الفضل ماذا تأمرني به؟ وماذا أقول؟ فقال العباس رضي الله تعالى عنه: قل أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له واشهد أن محمدا رسول الله. فقال أبو سفيان: وحياتك يا أبا الفضل هذه كلمة ثقيلة على لساني

ولم اظن لساني ينطق بها. قال العبّاس: فوالله إن لم تقلها فهذا السيف يعلو رأسك. فقال أبو سفيان: إذا قلت هذه الكلمة فمَنْ يقوم بخدمة اللات والعزى ومَنْ يصلح شأنهما. تم أنشد يقول:

يقـولـون اسلم وأنت بعنـوة ... وليس لقلبي عنـد ذاك قيـادي
فقلت لهم والقـلب مني ذاهـل ... قد حرت في أمري وغاب رشادي
أأدخل في الإسلام بالسيف عنوة ... فإن كان هذا الأمر مني باجهادي
وأتـرك العـزى والـلات جملة ... وأرمي بها خلفي بطر وابعـادي
فلولا مخافتي من السيف مضرما ... لما عن عـزمي بقـولي واسعـاد
سـاتبعكم خـوفاً ورعبـاً وعنـوة ... وفي القلب من هذا شأوي وابعاد

قال الراوي: ثم إن العباس رضي الله عنه قـال: يا أبـا سفيان غداة ندخل مكتكم إن شاء الله تعالى ونكسر أصنامكم وهبلكم الأعلى ونقتل مَنْ أبى وتولى. فقال له أبو سفيان عند ذلك: ماذا أقول يا أبا الفضل؟ فقال: قل أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله. فقال: اشهد إن لا إله إلا الله ولم يطاوعه قلبه ولسانه أن يقول محمد رسول الله. فقال له العباس: يا حمار قريش أكمل الشهادتين. فقال: كيف أكمل الشهادتين؟ قال: قل أشهد أن محمدا رسول الله.

قال الراوي: عند ذلك قالها ابو سفيان. فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان فرح وكبر، وكبرت الصحابة والمسلمون وقال: يا أبا سفيان سِرْ إلى قومك وعشيرتك سالماً وإياك والغدر والنفاق. فقبَّل يد النبي صلى الله عليه وسلم وودعه ومضى قاصداً إلى مكة وهو لا يصدق بسلامته.

قال الراوي: فلما بعد عن العساكر نادى النبي صلى الله عليه وسلم عمه العباس. فأجابه: لبيك يارسول الله. فلما قرب منه قال: أدرك أبا سفيان فإنه غدر ونافق وأظهر كفره وامتدح اللات والعزى والهبل الأعلى فوثب الإمام علي رضي الله عنه وقال: ائذن لي يارسول الله أن آتيك به أسيراً أو برأسه، فإني مشتاق إلى قتله ونشره. فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم في وجهه وقال: يا أبا الحسن لك ذلك، وكان الله لك عوناً ومعيناً وحافظاً وأميناً. ولكن عمك العباس أولى بذلك مثل ما كان أولاً يكون آخراً، والاعمال بخواتيمها.

فنهض بعد ذلك العباس رضي الله عنه، ودخل خيمته وتقلد بسيفه فقط وشد وسطه، وأتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقبل يده فقال له ﷺ: يا عمي إذا أدركته لا تقتله،

وإنه سيحمل عليك إذا راك منفرداً ولا يقدر عليك. فإذا رأيت منه ذلك فاذكر له عليا، فإنه يذل بين يديك وتنكسر شدته وقوته. فإذا رأيت ذلك فترجَّلْ عن جوادك وتقدم إليه واخلع عمامته عن رأسه وأوثقه بنصفها كتافاً وثيقاً لئلا ينقلب منك، واجعلْ نصفها في رقبته وضَعْه في أضيق الطريق بجانب حتى أعرض عليه القبائل والعربان، ويعرض عليه جبريل صفوف الملائكة الكرام. بذلك أمرني ربي على لسان جبريل عليه السلام وإنه يسلم إن شاء الله تعالى إسلاماً مستوفياً هو وزوجته. امض إليه سريعاً، كان الله لك عوناً ومعيناً وحافظاً وناصراً وأميناً. ففرح العباس رضي الله عنه بذلك وقبل يد النبي صلى الله عليه وسلم وجعل أذياله في دور منطقه، ودعا الله وأقبل مسرعاً على قدميه كالجواد المسرع، فأدرك أبا سفيان وهو منحدر من العقبة ويقول:

يقول العباس قولا مهددا ... أجب صاغرا قول النبي الموفق
وأقسم بالعزى واللات أنني ... لأشجع من ليث كريم محقق
ومن أعجب الأشياء دلي مروعا ... إلى السيد حان على الناس ضيق
اشعل نار الحرب من كل فارس ... من كل ليث الأمور موفق
وأسعى بجهدي كل يوم وليلة ... لاتلاء فضل من الجيوش وسبق

وإني أنا المقدام في حومة الوغا اكــر كــراراً في جميــع ملتـقي

قال الراوي: فتقدم إليه وناداه: غدرت ونافقت يا عدو الله وغيرت دينك فالتفت إليه أبو سفيان فرآه وحده فطمع فيه وصرخ فيه ونهره وقال له: بل أنتم أهل غدر يا بني هاشم. فقال له العباس: يا أبا حنظلة إن عتبوك لا تغدو أغدر مَنْ أسلم ثم نافق ومدح اللات والعزى والهبل بعد توحيد الله رب العالمين. فقال له: يا عباس إنك لحقتني سريعاً. فقال العباس: إن لي إليك حاجة. فقال له أبو سفيان: ما منعك أن تطلبها مني وأنا في أسرك وقبضتك؟ فقال له أبو العباس رضي الله عنه: أردت الخلوة بك يا أبا حنظلة. فقال أبو سفيان: هيهات إن عدت أصغي لأحد منكم يا بني هاشم في كلام وفي سلام.

ثم أنه أراد أن يحتال عليه لما رآه وحده. فالتفت العباس إلى ورائه ونادى بأعلى صوته: أدركني يا أبا الحسن، ثلاثاً، يا كاشف الكربات يا مفرج المهمات. فقال أبو سفيان عند ذلك: ابن أخيك علي بن أبي طالب؟ فقال العباس: هو على ثوى لاحق بك يا ويلك إن رآك على هذه الحالة، لا تنج منه أبداً.

أتحمل عليّ يا أبا حنظلة لولا أني جعلتك في تلك الليلة جعلتك في صدري ما ابقاك أبداً.

قال الراوي: فلما سمع أبو سفيان بذكر الإمام علي رضي الله عنه وتوبيخ العباس لـه، ذل وخضع وانكسرت شـوكته وعلاه الذل، ثم التفت إلى العباس وقال له: يا أبا الفضل وما تريد مني، أأرجع معك لابن أخيك محمد ويجيرني من علي بن أبي طالب؟ قال العباس: فقلت: لا روع عليك ولا ملام. ثم تقدمت منه وحللت عمامته عن رأسه وكانت من الحرير الأزرق محبوكة من أطرافها بالذهب والفضة، فأوثقتـه بنصفها كتـافاً شديداً، وجعلت النصف الثاني في رقبته، وأتيت به إلى أضيق الطريق من جانب الجبل، وأوقفته وقلت: يا أبا سفيان، بهذا أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم. فرفع رأسه إليّ وقال: يا أبا الفضل أنا أسيرك افعل ما تختار. وما اظن أني خالص من يدكم، وما كان خوفي إلا من هذا الذي وقعت فيه. ثم تنهد حسرة وندامة وأطرق برأسه إلى الأرض ولم يتكلم. فهذا ما كان من أمر أبي سفيان.

وأما ما كان أمر النبي ﷺ فإنه أمر منادياً في سائر القبائل

والعربان: يا معشر السادات والفرسان والأبطال والشجعان زينوا قبائلكم بالتيجان والأكاليل والبسوا أفخر ثيابكم، فإنكم قادمون على حرم مكة المشرفة.

قال الراوي: فلما سمعت القبائل والعربان النداء أجابوه، وأقبلوا على الخيام، وأخرجوا الدروع ولبسوها وتوجهوا بالتيجان والأكاليل والبيض المحلية، وتعمموا بالعمائم الإسلامية، وتقلدوا بالسيف الهندية، وركبو الخيول العربية، واعتقلوا بالرماح الخطية، ووقفوا صفوفاً بجمعهم مشرعين وإلى حضرة النبي ﷺ قاصدين. فلما قربوا منه ترجلوا عن خيولهم إكراماً له ﷺ، وسلموا عليه فرد عليهم السلام، ورحب بهم. ثم أشار إلى سادات القبائل أن تأتي إليه فجاءوا فقال النبي ﷺ: كل سيد منكم إذا اقبل على أبي سفيان ينشد شيئاً من الشعر يمدح فيه دين الإسلام ومَنْ يدين به، ويذم الكفر وأهله ويعلو الراية في وجهه لا يضربه ولا يجرجه، ثم يقول: انظر يا عدو الله ما أعد الله لك ولقومك، ثم يمر منطلقاً وتتبعه كتيبته. بذلك أمرني الله على لسان جبريل. فأجابوه بالطاعة.

قال الراوي: فبينما العباس رضي الله عنه واقف وأبو سفيان موثق كتافاً الى جانبه وهو تارة يتنفس الصعداء وتارة يتحسر وتارة يتقدم، وإذا هو بالكتائب قد أقبلت وكانت أول قبيلة طلعت عليهم بنو سليم يقدمهم سيدهم العباس بن مرداس السلمي، رضي الله تعالى عنه، وهو مقنع بالحديد هو وأصحابه لم يبين منهم إلا آماق الأحداق، وبيده راية رسول الله ﷺ. فيقدم قريباً من أبي سفيان وارتجل وأنشد:

تسامى العز في فرح سليم كريمَ احد مشتبك العروق
فنصر المصطفى فرض علينا إذا جحد المكذب الحنوق
وسوف تقر بالإسلام قهرا أبا سفيان اقرار الصديق
وتنظر من سليم الف ليث كان سيوفهم نار الحريق
تحامى عن رسول الله حقا رسول الواحد الملك الشفوق
عليه صلاة خالق كل شيء عداد القطر مع رمل الطريق
شفا قلبي واذهب كل غيظ بفتح نبينا البيت العتيق

قال الراوي: ثم هز الراية في وجهه وحمل عليه حتى كاد أن يقضي عليه، ثم قال له: انظر يا عدو الله ما أعدّ الله لك ولقومك ثم مرّ منطلقاً فتبعته كتيبته. قال العباس رضي الله تعالى عنه:

فرفع أبو سفيان رأسه إليّ وقال: يا أبا الفضل مَنْ هذا؟ فقلت له: العباس بن مرداس السلمي وهذه بنو سليم ألف فارس ليوث عوابس، قد جعلهم النبي عليه السلام في مقدمة هذه العساكر والجيوش في هذه الغزوة المباركة. فتنفس حسرة وندامة وقال: ما لي ولبني سليم، وما لهم وما لي. وأطرق برأسه إلى الأرض. قال: وأتى من بعدهم بنو جهينة يتقدمهم سيدهم عقبة بن عامر الجهمي رضي الله عنه وهو غائص في الحديد هو وقومه لا يظهر منهم إلا الحدق، وبيده راية رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتقدم حتى ضافت أنفاس أبي سفيان، وأشرف على الهلاك، وظن أنه ليس بناجٍ أبداً مما هو فيه. فقال العباس منشداً.

اصبر قليلاً فصبري عندك الفرج ولا تكن عجلا تذهب بك اللجج

فأطرق أبو سفيان رأسه إلى الأرض لم يتكلم. ثم تقدمت من بعدهم بنو كندة يتقدمهم كبيرهم المقداد بن الأسود رضي الله عنه هو وقومه غائصون في الحديد لا يظهر منه إلا آماق الحدقِ، وبيده راية رسول الله ﷺ. فتقدم حتى قرب من أبي سفيان وكبر ثلاثاً وهز الراية في وجهه وحمل عليه حتى كاد أن

يقضي عليه، وقال: انظر يا عدو الله ما أعده الله لك ولقومك. ثم مر منطلقاً وتبعته كتيبته فقال أبو سفيان: يا أبا الفضل مَنْ هذا؟ قال: هذا عطية بن يغوث وهؤلاء بنو نزار مضر. فتنهد حسرة وندامة وقال: يا أبا الفضل لقد اصبح ابن أخيك ملكاً يقود العرب ازمتها حيث شاء. فقال العباس رضي الله تعالى عنه: اسكت يا حمار قريش هذه نبوة اختصه الله بها إن سمعك ابن أخي علي بن أبي طالب ليضربن عنقك إن لم تؤمن بالله ورسوله. فقال: يا أبا الفضل لقد قل صبري وضاقت أنفاسي ولا أظن أن انجو أبداً قال له اصبر قليلاً تسترح كثيراً. فاطرق رأسه على الأرض ولم يتكلم.

ثم أقبلت من بعدهم الأوس والخزرج والأنصار، يتقدمهم كبيرهم الشيخ الكبير أبو الهيم رضي الله عنه هو وقومه، غائصون في الحديد لا يبين منهم إلا الحدق. فتقدم حتى قرب من أبي سفيان وكبر ثلاثاً وهز الراية في وجهه وحمل عليه حتى كاد أن يقضي عليه وقال: انظر يا عدو الله ما أعد الله لك فقال: يا أبا الفضل مَنْ هذا؟ قال: هذا سيد الفتيان المطيع للرحمن المرضي لسيد الاكوان أبو الهيم بن النبهان، وهذا الأوس والخزرج. فتنهد حسرة وندامة وقال: ما لي وللأوس

والخزرج وما لها. ثم اطرق رأسه إلى الأرض ولم يتكلم.

ثم أقبلت من بعدهم طائفة من الخزرج يتقدمهم كبيرهم جابر بن الخزرج هو وأصحابه غائصون في الحديد لا يظهر منهم إلا الأماق وبيده راية النبي ﷺ فتقدم حتى قرب من أبي سفيان.

قال الراوي: ثم كبر ثلاثاً وهز الراية في وجهه وحمل عليه حتى كاد أن يقضي عليه وقال: انظر يا عدو الله ما أعد الله لك ولقومك. ثم مر منطلقاً وتبعته كتيبته. فقال أبو سفيان: يا أبا الفضل مَنْ هذا؟ فقال العباس رضي الله عنه: هذه طائفة من الخزرج وهذا كبيرهم جابر بن عبدالله الخزرجي. فتنفس وتنهد حسرة وندامة وقال: ما لي وللخزرج وما لهم وما لي. ثم قال: يا للعرب يا لها من نبوة عظيمة. يا أبا الفضل متى تطلقني؟ فقد ضاقت بي الأرض بما رحبت. فقال العباس: اصبر قليلاً ولا تعجل فعقب الصبر نيل الأجر. فأطرق رأسه إلى الأرض ولم يتكلم.

ثم انطلقت تمرّ الكتائب ساعة زمانية. فقال أبو سفيان: يا أبا الفضل متى يأتي ابن أخيك أحمد فقد ضجرت من الوقوف

وكادت روحي إن تفارقني. فقال العباس: عن قريب يأتي. وإذا بغبارة قد طلعت وكتيبة قد أقبلت فيها الاسنة المشهورة والسيوف اللامعة، ولهم دوي وهدير بالتسبيح والتهليل والتكبير والتمجيد والتقديس لله رب العالمين والصلاة والسلام على البشير النذير السراج المنير سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام كدوي النحل. في أوائلهم فارس جسيم أصبح الوجه. فنظرت إليه وتأملته فإذا هو أبو ذر الغفاري هو وقومه غائصون في الحديد لا يظهر منهم إلا آماق الحدق، وبيده راية رسول الله ﷺ. فتقدم حتى قرب من أبي سفيان وكبر ثلاثاً وهز الراية في وجهه. وحمل عليه حتى كاد أن يقضي عليه، وقال: انظر يا عدو الله ما أعد الله لك ولقومك. ثم مر منطلقاً وتبعته كتيبته فقال أبو سفيان: مَنْ هذا يا أبا الفضل؟ فقال العباس رضي الله تعالى عنه: هذا أبو ذر الغفاري، وهذا بنو غفار. فتنفس وتنهد أسفاً ولهفاً وقال: ما لي ولبني غفار وما لهم وما لي. ولكن يا أبا الفضل ما رأيت اشجع من هذا الفارس ولا اصبح منه وجهاً فقال العباس رضي الله تعالى عنه: هذا الذي قال رسول الله ﷺ في حقه: ما اطلت الخضراء ولا

اولت الغبراء احداً اصدق لهجة من أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

قال الراوي: ثم أقبلت من بعدهم بنو عبس وهم ألف فارس ليوث عوابس، وعليهم الدروع السابورية والبيض المجلية والسيوف الهندية والرماح الخطية، وفي أوائلهم فارس عظيم القامة. فنظر أبو سفيان إليه فإذا هو عمار بن ياسر العبسي، هو وأصحابه غائصون في الحديد، بيده راية النبي صلى الله عليه وسلم. فتقدم حتى قرب من أبي سفيان وكبر ثلاثاً وهز الراية في وجهه، وحمل عليه حتى كاد إن يقضي عليه، وقال: انظر يا عدو الله ما أعده الله لك ولقومك. وتبعته كتيبته، فقال أبو سفيان: يا أبا الفضل مَنْ هذا؟ فقال العباس رضي الله عنه هذا صاحب النبي صلى الله عليه وسلم عمار بن ياسر العبسي، وهذه بنو عبس. فقال: ما لي ولبني عبس وما لها ومالي. ثم قال: يا أبا الفضل ألم أقل لك إن ابن أخيك محمداً اصبح ملكاً يقود العرب بأزمتها حيث شاء؟ فقال له العباس: لا تقل ملكاً وإنما هي نبوة عظيمة اختصه الله بها. فقال أبو سفيان: حلّ وثاقي لاستريح ساعة واحدة قبل الموت، فإني هالك لا محالة. يا لها من بلوة ما لي منها خلاص.

فقال له العباس: اصبر قليلاً. فأطرق برأسه إلى الأرض ولم يتكلم.

قال العباس: ثم أقبلت من بعدهم بنو ثقيف وهم ألف فارس ليوث عوابس يقودهم رجل بهي المنظر يسمى عبدالله ابن مسعود الثقفي هو وأصحابه غائصون في الحديد وبيده راية وارتجل:

أجبنا رسول الله حين دعا على كل جبار وذلول
عليها ليوث في الوغى قد تبادر وشبابنا تغشى صبياً وكهول
بهم تكشف الاهوال في كل موقف وفي كل صعب موقف وهلول
عليه صلاة الله ثم سلامه صلاة وتسليما اعداد يسول

قال الراوي: ثم كبر ثلاثاً وهز رايته في وجه أبي سفيان وحمل عليه حتى كاد أن يقضي عليه، وقال: انظر يا عدو الله ما أعد الله لك ولقومك. ثم مر منطلقاً وتبعته كتيبته. فقال أبو سفيان: ما لي ولبني ثقيف، وما لها وما لي. ثم قال: يا أبا الفضل لقد دخلت على كسرى أنوشروان في عسكره، وبطرقته وجيشه في عسكره ودخلت على المقوقس بن راعيل ملك مصر واسكندرية بموكبه وعسكره. وجعل يعد الملوك ملكاً ملكاً

وقال: ما رأيت مثل عساكر ابن أخيك محمد فقال له: اسكت يا حمار قريش هي نبوة خصه الله بها. فبينما هما في الكلام وإذا بغبرة عظيمة طالعة وسيوف لامعة وقد انكشف الغبار عن ألف فارس، عليهم الدروع الداودية والعمائم الحجازية، متقلدين بالسيوف الهندية، راكبين الخيول العربية نسل السلالة الهاشمية وغرة العصابة المحمدية، وفي أوائلهم شاب مليح كثير الحياء والوقار ذو هيبة وافتخار على رأسه عمامة مطرزة فوق بيضة عادية لها شعاع كالشمس، وبيده راية الرسول صلى الله عليه وسلم.

قال العباس: فلما رأني تبسم في وجهي وأشار إلي بالسلام، وإذا هو ولدي الفضل. فتقدم إلى أبي سفيان وصرخ عليه وهز الراية في وجهه وحمل عليه حتى كاد أن يقضي عليه، وقال: انظر يا عدو الله ما أعد الله لك من هذا البطل الشديد والفارس الصنديد. فقال ابو سفيان: من المؤكد أن هذا بطريق من بطارقة الروم وأحد من الرجال الفارسية استخدمه ابن أخيك محمد صلى الله عليه وسلم. فقلت له: هذه فرسان بني عبد مناف، وهذا الفارس المتقدم عليهم هو ولدي الفضل

رضي الله عنه. فقال لي: صدقت يا عباس، وهل تلد الحية إلا حية مثلها؟ وهو أشبه بجده عبد المطلب. ثم قال: أطلق سبيلي يا أبا الفضل بعدما زهقت روحي، فقلت: يا أبا جنظلة بقي القليل. وتعجبت من قوة قلبه على ملاقاة الأبطال وتوبيخهم له.

فبينما هما في الحديث وإذا بغبرة قد ظهرت، وعجاجة قد ارتفعت، وظهر من تحتها ألف فارس عليهم الدروع الداودية متقلدين بالسيوف الهندية، راكبين على الخيول العربية فروع الشجرة الهاشمية وأبطال العصابة النبوية، وفي اوائلهم رجل جسيم قد علا بطنه قربوس مسرجه يخبط الأرض برجليه، والشجاعة بين عينيه، وبيديه رايتان كريمتان. فتأمله أبو سفيان فإذا هو فارس الدين وبطل الموحدين وقاهر الكفرة والمشركين زوج البتول وابن عم الرسول ليث بني غالب علي بن أبي طالب. فتقدم لأبي سفيان وهز الراية في وجهه وحمل عليه حتى كاد أن يقضي عليه، وقال: انظر يا عدو الله ما أعدَّ الله لك ولقومك. وكبر ثلاثاً ومر منطلقاً وتبعته كتيبته. فقال أبو سفيان: يا أبا الفضل من هذا الذي لم يكن في عساكركم مثله؟ لقد تخيل لي الموت لائحاً بين عينيه يريد أن يخطف

روحي بيده. فقال له العباس: هو الكرار والبطل الهدار، هذا صاحب المفاخر، هذا شجاع بني غالب، هذا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.

قال أبو سفيان: لقد خلع قلبي من خوفي.

قال العباس: ثم انقطعت الكتائب وإذا بجيش قابل علينا وأخذ من الجبل للجبل، وفيه دروع سابورية وبيض عادية، ولمعان سيوف وصهيل خيل ورغاء إبل فتأملته فوجدته كاملاً فاضلاً، رائحته أزكى من المسك، يخرج من فيه نفحات الكافور والعنبر، البشير النذير، السراج المنير، السيد الطاهر، والعلم الظاهر، والاصل الفاخر، أبو القاسم جد الحسين وإمام الثقلين، خاتم الأنبياء والمرسلين، والشفيع وقائد الغر المحجلين لجنات النعيم محمد بن عبدالله بن عبد المطلب بن عبد مناف صلى الله عليه وسلم.

قال العباس: فلما أقبل علينا وأشرف على أبي سفيان وهو ذليل قال: اللهم اهده للإسلام. فاستجاب الله دعاءه وأوحى إليه جبريل عليه السلام إن أهبط في زمرة من الملائكة المقربين واجعلهم جزئين: جزءاً عن يمين محمد وجزءاً عن يساره، وجزءاً خلفه وجزءاً أمامه. فامتثل جبريل لأمر ربه الجليل

وهبط عليه ﷺ، فجعل عن يمينه ملكاً عظيم الخلقة شديد الهامة، شاهراً سيفه على عاتقه عشرة آلاف من الملائكة على خيولهم حمر، بأيديهم رايات حمر، وجعل عن شماله ملكاً عظيم الخلقة طويل القامة شاهراً سيفه على عاتقه عشرة آلاف من الملائكة على خيولهم خضر، بأيديهم رايات خضر، وعليهم ثياب خضر. وتقدم أمامه جبريل عليه السلام بعشرة آلاف من الملائكة على خيل شقر وهو حامل لواء النصر على أربعة املاك أمام رسول الله ﷺ، وقد جاز المشرق والمغرب، وأوحى الله تعالى إلى رضوان خازن الجنان أن ينشر سحابة من الكافور الأبيض، ويحفظها بنسيم الرحمة، وينثرها على حبيبه محمد ﷺ، وأشرفت الحور العين من مقاصيرها، وأوحى الله إلى ميكائيل وإسرافيل وعزرائيل عليهم السلام طوفوا بحبيبي محمد ﷺ واحفظوه فوعزتي وجلالي لأكشفن الغطاء عن قلب أبي سفيان وناصره حتى يرى مقام حبيبي محمد ﷺ ومنزلته عندي، ونزل ﴿اليوم اكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ فعند ذلك حفت الملائكة بالنبي ﷺ واحدقوا به بجيوش الإسلام.

ثم إن النبي ﷺ أخرج لواء الملك المقوقس ملك مصر، نشره على رأسه. وكذلك لواء الملك قيصر ملك الروم. وكذلك علم الملك كسرى أنو شروان صاحب العجم ونشرها على رأسه. وأخرج محفظة من الديباج عليها ثلاثة فقام وفتحها وأخرج منها العلم الأعظم الذي كان أهداه له النجاشي ملك الحبشة.

قال حسن البكاري: وكان النبي أرسل إليه جعفر ابن عمه أبي طالب في الهجرة الأولى فأسلم على يديه وأكرم مَنْ كان معه من المسلمين. ثم قال لجعفر: ما يحب ابن عمك من الهدايا. فقال له: اعلم أيها الملك إن ابن عمي محمداً قد بعثه الله وأمره بالجهاد في أعدائه الكافرين حتى يؤمنوا بالله ورسوله، ويحب من الدنيا ثلاثة النساء والطيب وقرة عينه في الصلاة. فأهدى إليه النجاشي الطيب والسلاح.

قال الراوي: فلما نشر النبي العلم في ذلك اليوم ظهرت بوارقه. فعندها دعا النبي برمح مرحب اليهود الذي قتله الإمام علي يوم خيبر، فأفرغ عليها وأخذ العلم من رأسه إلى أسفله، ثم سلمه النبي إلى حسان بن ثابت الأنصاري. فأخذه

حسان فلمعت بوارقه وأشرقت انواره من كل جانب، وصار يقرأ ما عليه من القرآن.

قال الراوي: فلما أخذ حسان العلم تقدم العباس وقبل يد النبي وصدره، وقال: يا رسول الله اجعل أبا سفيان في أمانك وزمامك. فتبسم النبي من كلام العباس وقال: هو لك يا عم. في هذا اليوم أطلق سبيله ودعه يسير إلى مكة ويخبر أهلها بقدومنا، وله منا الأمان: فَمَنْ دخل بيتك يا أبو سفيان كان آمنا، ومَنْ دخل البيت الحرام كان آمنا.

قال الراوي: فلما دخل أبو سفيان مكة وتخلص من العقال لقيه سعد بن عبادة الأنصاري. فعند ذلك جاء زيد بن الخطاب إلى النبي ومعه رجال من الأنصار، فسلموا على النبي وقبلوا يديه وقالوا له: يارسول الله هل أنت أمرت سعد بن عبادة بهجو قريش وأعادوا للنبي كلامه. فعند ذلك وثب زيد يقول:

يعاني الهدى إليك الرجاء لقريش فانت نعم الرجاء
تعليم قد ضاقت الأرض جمعا واتاهم من الإله البلاء
إن سعدا يرى لنا كل سوء وهو في الشر حية رقطاء

إن قــد أتى لــبـيــت حــرام حرم الرب فيـه سفك الـدماء

فلما فرغ زيد فاضت عيناه بالدموع رحمة على قريش لأنه رقيق القلب. قال: أين قيس بن سعد؟ فأجابه: لبيك يا نبي الله فقال: الحق أبـاك وخذ رايتنا منه وإن كان أمير قـومه. فأجابه بالسمع والطاعة. وذهب إلى أبيه مسرعاً وناداه: يا ابتاه أعطني الراية. فقال: يا ولدي لا أدفع اليك راية عقدها لي رسول الله. فعند ذلك رَجع قيس إلى النبي وأخبره بذلك، فمن شفقته على قريش أنزل عمامته الكريمة عن رأسه وسلّمها لقيس، فأخذها وقبلها، ومضى بها لوالـده الذي سـأله: يـا ولدي ما كان سبب عزلي عن راية رسول الله؟ فقال: السبب في عزلك أنك هجوت المهاجرين والأنصار من قريش، وأعادوا كلامك للنبي، فبكى سعد بكاء شديداً.

قال الراوي: فلما استلم قيس الراية قال له والده: يا ابني إنما دخرتك اليوم فلا تعمل شيئاً إلا بأمر رسول الله. فأجابه بالسمع والطاعة.

قال الراوي: وكان أهل مكة لما سمعوا مناداة أبي سفيان منهم مَنْ تفرقو فرقاً، ومنهم مَنْ دخل بيت الله الحرام، ومنهم

مَنْ دخل بيت أبي سفيان، ومنهم مَنْ تفرق في الأودية، ومنهم مَنْ جلس على الطريق متعرضاً للحرب والقتال، ومنهم مَنْ تركوا بيوتهم.

قال الراوي: فأما الذين تعرضوا للحرب فقالوا: واللات والعزى والهبل لا ندع محمداً يدخل مكة إلا قهراً بالسيف. فلما دخل ابن الوليد ومَنْ معه في مكة فوجد القوم متهيئين للقتال فناداهم خالد: يا قوم تنحوا عن الطريق فندخل ونكف عنكم قتالنا توقيراً للبيت الحرام وزمزم والمقام، تولوا عن الطريق وإلا وضعت فيكم السيف فلا أرفعه إلا بإذن رسول الله. فقالوا: يا خالد إنا نراك رجلاً مسحوراً يقال له هذا المقال، دونك والحرب والقتال فما ندعك تدخل ولو متنا عن آخرنا. فغضب عند ذلك خالد غضباً شديداً، ركب رأسه على قربوس سرجه، وجرد سيفه، وحمل فيهم حملة منكرة هو وأصحابه وجرى بينهم الطعن والضرب، وقوي الحرب والقتال، وقدحت حوافر الخيل الشرار، وأظلم النهار، وكثر الحملات والصرخات.

قال الراوي: هذا ما كان من أمر خالد بن الوليد. وأما ما

كان من أمر رسول الله فقد دخل مكة المشرفة راكباً ناقته العضباء، وعلى رأسه بردة حمراء مطرقا رأسه تواضعاً لله على ما أكرمه بفتح مكة المشرفة، حتى أن عمامته تكاد تمضض الرجل.

قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق: كان جدي أبو قحافة له ابنة صغيرة. فلما سمع بدخول النبي صلى الله عليه وسلم مكة المشرفة بجيوشه وعساكره قال لها: يا ابنتي اذهبي ماذا تنظرين؟ قالت: يا أبت أنظر إلى سواد عظيم قد انتشر على مكتنا من كل جانب فرآه ولده أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وكان مجاوراً للنبي، فمضى إلى أبيه فسلم عليه فرد السلام ورحب به وقال له: يا أبت هل لك أن تمضي معي إلى النبي صلى الله عليه وسلم؟ فأجابه إلى ذلك وصار معه حتى قرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يا أبا بكر لِـمَ لَمْ تترك الشيخ حتى نأتيه اكراماً لك ولابيك، قال: فداك أبي وأمي يارسول الله، هو أحق إليك بالمشي حافياً راحلاً على قدميه.

ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم أجلسه بين يديه ومر بيده لمباركة على صدره وقال له: أسلم يا أبا قحافة. فقال: امدد

يدك يارسول الله، أنا أقول أشهد أن لا إله إلا الله واشهد أنك محمد رسول الله ففرح النبي ﷺ بإسلامه.

ثم أمر الزبير يدخل مكة من الجانب الأيسر وكان دخول خالد بن الوليد من الجانب الأيمن.

ثم نعود إلى القصة.

قال أبو جهل وسهيل بن عمرو: وكان حماد بن قيس يصلح في سلاحه فقالت له زوجته: خاب ما صنعت إنك لمأخوذ. فعند ذلك غضب من قولها وخرج صحبة صفوان بن أمية وحملوا على خالد، فتلقاهم بفلب قوي، وقال في أوائلهم: الله أكبر ثلاثا فتح الله ونصر وخذل من كفر. وخالد يصول عليهم بطلعات وحملات وصرخات فانهزم حماد ودخل منزله، وقال لزوجته: اغلقي عليّ الباب ولا تعلمي بي أحداً فقالت: أين ما وعدتني به؟ فأنشد:

إنك لو شهدت يوم الخندقه اذ فر صفوان وفر عكرمه
وابن الوليد كم الثرى قد لجمه واستقبلنا بالسيوف المسلمه
تفلق كل ساعد وجمجمه ضربا فلا يسمع إلا غمغمه
لم تنطقي في اللوم أدنى كلمه فإن أصحاب النبي محرمه

من الـذين خالفـوا ذي الملحمه ويـذلـوا الـروح لنيـل المكـرمـه

قـال الراوي: وانهزم جيش صفـوان بن أميـة وقتـل من سادات قريش سبعة وعشرون سيداً فنادوا بالأمان، فلم يعطوا الأمان إلى أن انهزم منهم جيش كبير. فنهضت طائفة منهم إلى النبي وهـم يقولون: الأمان الأمان يا محمد من خالد، فإنه قتل من قريش سبعة وأربعين سيداً. فعظم ذلك عـلى النبي، ثم نادى علي الإمام وقال له: توجه إلى خالد. فعند ذلك توجه الإمام على خالد وصرخ به صرخة عظيمة. فسمع خالد رضي الله عنه ذلك، فترجل عن جواده وتمثل بين يدي الإمام، ورمى السيف من يده، وقال: يا أبا الحسن، وحقِّ النور الذي يتلالا في وجه رسول الله، ما من رسول يـأتي إلا ويقول الـرسول يقرئك السـلام، ويقول لـك ضع السيف في أهـل مكة ولا تعطهم أمانا، وها أنا ورسلكم بالمقال بيني وبينكم.

قال الراوي: فعند ذلك غضب النبي على خالد وأعرض عنـه، وقال: إليَّ بمـروان ومازن وأبي أيـوب الأنصاري وهـم الذي كان يرسلهـم النبي إلى خالد لئلا يطلبوا منـه الأمان. فقالوا: لبيك يارسول الله، ها نحن بين يديك. قال لهم: ألم

أرسلكم إلى خالد بن الوليد هذا بالأمان إلى أهل مكة أن يرفع عنهم السيف؟ قالوا: نعم بأمر رسول الله، ولكن نحدثك بعجيب حيث أتينا إليه برسالتك ونقرئه عنك السلام. فإذا اردنا أن نقول ارفع السيف واعط قريشا الأمان، فتنقلب قلوبنا فلا ندري ما تنطق به الألسن فتخرج الكلمة، فما نعرف ما نقول إلا ضَعِ السيف في مكة. ولم يكن ذلك بمرادنا ولا بأمرنا وها نحن بين يديك يارسول الله.

قال الراوي: فركب النبي وجعل عمامته على رأسه، وتختم بخاتم إبراهيم عليه السلام، وتحزم بمنطقة إسماعيل، ثم أمر القبائل والعربان بإظهار زينتهم. فأجابوه لذلك ولبسوا أفخر ملابسهم وأحدقوا برسول الله والغمامة ظللت عليه، وظهرت أنواره، وعظم الله قدره، وأضاءت مكة لطلعته، وفتحت أبواب السماء لرؤيته، وكبرت أملاك السماء في العلو فرحاً بفتح بيت الله وطهارته.

فعند ذلك فرح المسلمون فرحاً شديداً بعمارة بيت الله بالإسلام، وارتفعت أصواتهم بالتهليل والتكبير والثناء على الملك الجليل. فلما وصل النبي الباب الأول قرأ قوله ﴿وقل

رب ادخلني مدخل صدق واخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً﴾ فلما سمع نصير بن عبادة قراءته تقدم وقرأ قوله تعالى بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ إلى قوله تعالى ﴿وينصرك الله نصراً عزيزاً﴾.

قال الراوي: فعند ذلك ترجلت العساكر والعربان عن خيولهم إكراماً لرسول الله وإجلالاً وتعظيماً للبيت الحرام، وكانوا حينئذ اثنين وسبعين الف فارس غير أتباعهم، وليس فيهم راكب غير رسول الله وبجانبه الإمام علي وهو يقول: اللهم ارزقني تواضعاً لوجهك الكريم، وجبريل عن يمينه يقول له: اقرأ يا محمد قوله تعالى ﴿قد جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾.

فجعل النبي يكررها، والإمام علي ينادي بأعلى صوته: يا أهل مكة هذا الذي طردتموه، انظروا ما صنع الله به في هذا اليوم. فلما سمع أهل مكة مناواة الإمام ضجوا بالبكاء والنحيب، ونادوا: الأمان يارسول الله، فلا تؤاخذنا بما فعلنا.

قال الراوي: فارتاحت العساكر والقبائل إلى رسول الله، فجعل النساء يروحن بخمارهن. فلما رأى النبي ذلك قال

للإمام علي: يا أبا الحسن لقد صدق حسان :

تظل جيادنا متمطرات يلطمهن بالخمر النساء

ولم يزل النبي راكباً حتى نزل بالبيت الحرام فوقف على بابه وقال الله اكبر ثلاثا لا إله إلا الله وحده، صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الاحزاب وحده. ثم دخل البيت الحرام وطاف به اسبوعاً. ثم أشار بقضيب كان بيده الكريمة نحو الأصنام وقرأ قوله تعالى ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾، فتساقطت الأصنام على وجوهها والهبل الأعلى كان ظهر الكعبة مسبوكاً عليه بالرصاص. ثم قال النبي يا أبا الحسن نادِ أهل مكة: منْ كان في داره صنم فليكسره وَلْيَرْمِهِ في الفضاء، ومَنْ خالف ذلك حل دمه وماله لرسول الله بأمر الله تعالى.

فلما وصل إلى باب الكعبة وجده مقفلاً فطلب المفتاح من بني شيبة، فقالوا له: قد ضاع منا. فقال النبي: أخبرني جبريل أنه ما ضاع، وأنه تحت الرخامةَ الحمراء، وأنه تحت الدرجة. فتعجبوا من ذلك عجباً شديداً وقالوا: يارسول الله صدقت وأنت الصادق المصدوق قال لهم: ما حملهم على منعه

والبيت بيت الله؟ فأتوا له بالمفتاح، ففتح باب الكعبة، فقال بنو شيبة: يارسول الله لا تسلبنا عزنا وفرحنا الذي توارثناه عن آبائنا وأجدادنا الكرام. فقال ﷺ: إني أرده إليكم مقره في أيديكم ليوم القيامة، وإن الله تعالى اختاركم لخدمة بيت الله الحرام، وقد أنزل الله في كتابه العزيز إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها. ثم يا بني شيبة لا يغالبكم عليه أحد إلى يوم القيامة..

ثم إنه ﷺ دخل الكعبة ونظر إلى الهبل الذي على ظهر الكعبة، وقال: يا أبا الحسن انظر إلى الصنم الذي كانت قريش يعبدونه من دون الله ويضلون به كثيراً من الناس. فقال الإمام علي: اتأذن لي يارسول الله أن اصعد على ظهر الكعبة وأرميه على رأسه؟ فقال النبي هو لك يا أبا الحسن، فصعد الإمام على ظهر الكعبة.

فلما رآه أهل مكة لم يبق أحد منهم إلا وخرج لينظر كيف يصنع بالهبل الكبير وهو مسبوك عليه بالرصاص. فقال بعضهم لبعض: ما كفى محمد بن عبدالله دخول مكتنا بالسيف قهراً حتى يفجعنا في الهبل الكبير، ولكن الساعة يغضب الصنم

ويرميه من عنده على أم رأسه، أو يسلط عليه أعوانه فيرمونه قتيلاً بين يديه. فلما تقدم عليٌّ نحو الهبل ليرميه وإذا قد خرج إليه مردة الجن والشياطين من جوف الصنم وقد أتوا إليه أفواجاً ليخوفوه ويزعجوه. فلما رآهم الإمام على صرخ عليهم واقرأ عليهم قسماً كان علمه له رسول الله. فما أتم الإمام قراءة القسم حتى كان الهبل الكبير قد خرَّ على أم رأسه إلى الأرض، فتزلزلت مكة من ثقل تلك الصخرة.

فعند ذلك وقف النبي على باب الكعبة وقال: لا إله إلا الله وحده صدق وعده، ألا وقتيل الخطأ شِبْهِ العَمْد بالسوط والعصا، ففيه الدية مغلظة ومائة من الإبل اربعون منها في بطونها الاولاد. إلا يا معاشر قريش إنْ الله قد اذهب عنكم فخر الجاهلية وقرأ قوله تعالى ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عند الله اتقاكم﴾ يا معشر قريش ما ترون أني فاعل فيكم؟ قالوا: خيراً يارسول الله نعم الأخ الكريم والنبي الرحيم، ثم قال: اذهبوا أنتم العتقاء.

ثم التفت بوجهه لبني خزاعة وقال لهم: اعلموا أن الله

تعالى حرم هذا البيت الحرامّ والبلد الحرام من يوم خلق السموات والأرض. لا يحل لمؤمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها الدماء ولا يعضد فيها الشجر، وأنها لم تحل لأحد، ولا تحل بعدي، ولا حلت هذه الساعة إلا غضباً على أهلها، ثم عادت إلى حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس. فالحاضر منكم يبلغ الغالب. فمن قال لكم إن رسول الله قتل فيها فقولوا إن الله أذن لرسوله ولم يؤذن لكم. يا معشر قريش ويا بني خزاعة ارفعوا أيديكم عن القتل. ثم إن في القتيل مائة من الإبل.

ثم وقف رسول الله يدعو الله على الصفا وقد أحدق به المهاجرون والأنصار. فقالت الأنصار في أنفسهم: هل ترى إذا فتح بلدة مكة هل يسكن بها أو بالمدينة؟ فلما فرغ النبي من دعائه، قال لهم: ما تقولون يا بني الأوس والخزرج؟ قالوا: ما نقول شيئاً يارسول الله. قال: بل قلتم هل يسكن بمكة أو عندنا بالمدينة؟ فسكتوا فبشرهم بخير. ودعا لهم بخير.

ولما دخل البيت وصار يطوف، جاء رجل من خلفه اسمه فضالة الملاح وأراد قتل النبي وهو يطوف. فلما دنا منه قال: يا فضالة. قال له: لبيك يارسول الله. قال: ماذا تسر في

نفسك؟ قال: خير يارسول الله. قال: اذكر الله واستغفره. ثم وضع النبي ﷺ يده على صدره، وقال في سره: اللهم اهده للإسلام. فسكن قلبه وقال: والله ما وقع النبي يده عليَّ حتى تمكن الإيمان في قلبي ونطق بالشهادتين ثم أنشد يقول:

قال هلم إلى الحديث فقلت لا ... فعليَّ مَنَّ الإسلام بالإسلام
اذ لو رأيت محمداً في صحبه ... في الفتح يوم الكسر تتكسر الأصنام
لرايت دين الله اضحى ديننا ... ورايت دين الشرك مثل ظلام

قال الراوي: وأسلمت نساء مكة، وأسلمت أم حكيم بنت الحرث وفاختة بنت الوليد زوجة عكرمة بن أبي جهل لعنه الله، وطلبت لزوجها فأمنه رسول الله ﷺ وأتت به إلى النبي ﷺ فأسلم على يده. وأسلم صفوان بن أمية، وأسلمت أم هانىء أخت الإمام علي رضي الله تعالى عنه، وأسلم زوجها هبيرة بن وهب، ولم يزل متربصاً على دينه حتى مات.

قال الراوي: وفرح المهاجرون والأنصار وجميع القبائل والعربان بفتح مكة المشرفةفرحاً شديداً وقام النبي ﷺ خمسة عشر يوماً بقية شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة. وقد أمر النبي ﷺ أن لا أحد يخلع سلاحه ولا لباسه. وكان ـ.ـه

العباس يمشي في شوارع مكة فرحاً مسروراً بفتحها وهو يقول:

لاح البيان واشرقت أنواره بيننا وهداية الخلاق
نور الهدى قد لاح دياركم فاستقبلوه بفرحة وتلاقي
الخائض الهيجاء في يوم الوغى خير الانام وصفوة الخلاق

قال الراوي: وكان النبي مدة إقامته أمر منادياً ينادي في شوارع مكة: يا معشر قريش وغيرهم، مَنْ كان بداره صنم فليكسره ويَرْمِهِ في الخلاء ويعبد الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم، ويقول لا إله إلا الله. محمد رسول الله ومَنْ خالف قد حل ماله ودينه لرسول الله،

فأتوا إليه أفواجاً وأسلموا على يديه. وكان ذلك قبل اسلام أبي سفيان وزوجته هند وكانت قد بذلت على قتل عمه حمزة بن عبد المطلب يوم أحد المال الكثير وخشي العبد الذي جاء إليه من خلفه وضربه بحربة فقتله. فجاءت إليه هند وشقت قلبه واستلمت قلبه ونهشت منه فحوله الله حجراً في بطنها وكانت في ذلك اليوم ترى في منامها كل ليلة عبداً يقتلها شر قتلة وهي تجد ألم القتل في نفسها، حتى حرمت المنام: فلما كان يوم فتح مكة جاءت قبل أبي سفيان لتسلم على يد رسول الله

فأعرض عنها وجهه الكريم، فأتت إليه من الجوانب الأربعة وهو يعرض عنها. فعند ذلك وقفت باكية حزينة ونطقت بهذه الأبيات:

أتيت إليـك يـا خـير البريـة بـإسـلام وتحـقيـق ونـيـة
وحسـن عـقيـدة في الله ربي فـاسمح واتركن فعل الـدنية
فـإن الله يـغـفـر كـل ذنـب بتـوحيـد واخـلاص ونـيـة
وجئت الآن يـا مختـار اسعى عـلى الاقـدام اتـردد صعيـة
وجد لي بالرضا واغفر لي ذنبي فـإني بـالقبـائـح مفـتريـة
وقـد اذنتهـا إذ كـنت عـميـا على الإسلام بظلم الجاهلية
فيا من قـد أتى بـالحق مصدقا يـبشرنـا ويـنـذرنـا سـويـة
ويـظهـر ديـنـه في كـل حي وقـد اخمـدت دين الجـاهليـة
سـألتك بـالـذي خلق الـبرايا ومن رفـع السمـوات العليـة
واجـرى الشمس فيها ثم بـدرا ومـن بـسط الأراضي لـلبريـة
واجـرى البحـر والأنهار جمعـا وارسـاهـا بـأوتـاد قـويـة
وبـث بهـا دوابـا سـارحـات ووحشـا ثم طيرا بـالسويـة
واجـرى رزقهم فـيهـا دوامـا إلى أن ينتهي إلى وقت الـبريـة

قال الراوي: فبينما النبي معرض عن هند إذ هبط عليه

الأمين جبريل عليه السلام وقال: يا محمد ربك يقرئك السلام ويخصك بالتحية والاكرام ويقول لك اقرأ قوله تعالى ﴿يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً﴾ إلى ﴿غفور رحيم﴾، واعلم يا محمد أن الله تعالى قد قبل توبة هند وغفر لها، فبايِعْها على الإسلام وبايِعْ غيرها ممن يأتيك من النساء. ثم عرج إلى السماء، فعند ذلك أقبل النبي الكـريم بوجهه على هند وقال لها: يا هند إن الله أمرني أن ابايعك على الإسلام بشروط. فقالت: وما هي الشروط يارسول الله؟ فقال: لا تشركي بالله شيئاً. فقالت: نعم يارسول الله.

قال الراوي: فلما أجابته هند إلى ذلك دعا النبي باناء فيه ماء ووضع يده الكريمة فيه، ثم أمرها أن تغمس يدها فيه، ففعلت، فما رفعت يدها من الاناء حتى كبَّر الرجال، فكانت المصافحة بيده الكريمة فما أخذ يده حتى يتمكن الإسلام منه.
ولما شملت أبا سفيان الهداية جاء للنبي يسعى وهو يقول:

يـاخـير من زان الـبريـة حسنـه واجـل مبعـوث اتـانـا بـالهـدى
مـا انجـبـت حـوا لآدم مثـله كـلا ولا في الخلق مثـل محمدا
كلا ولا حملت بنات في الـورى أبهـى جمـالاً مـن احمـدا

كـلا ولا ركب السبـاق كمثله عنـد القتـال ولا تـراه مقلدا
فعليـك صـلى الله ربـك دائماً يـاخير مبعـوث اتـانـا مـرشـدا

فلما فرغ أبو سفيان قال: امدد يدك يارسول الله، لا كفر بعد إيمان، ولا شك بعد يقين. قال: فقد قبلت وسعدت يا أبا سفيان فإن الله تعالى قال: ﴿قل للذين كفروا أن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف﴾: ففرح المسلمون باسلام أبي سفيـان، واستقر أميراً بمكة بأمر رسول الله بعد رجوعه إلى المدينة.

وكان بعض أهل مكة قد تفرقوا في الأودية والجبال، وأمر النبي بقتلهم حيث وجدوا. فنزل فيهم القرآن العظيم وكان أمانا وعفوا وغفرانـا. فمنهم مَنْ آمن، ومنهم مَنْ أمنه النبي وخلفه أن لا يكون له ولا عليه. وما أبو الزعيم فأتى إلى النبي وأسلم على يده فقبله وفرح به وأنشد يقول:

مـنـع النـبي بـلابـل وهـمـوم والليـل معتكـر الـظلام بهيم
يـاخير من حملت عـلى أوصالهـا قـد جئت معتـذراً وأنت كـريم
إني لمـعتـذر إلـيـك بـذلـتي إني اسـالت وفي الـظلام اهيم
النفس تـأمـرني بـطوع غـويـة فـأطعتهـا في غيهـا الميشـوم
قـويت أسبـاب الـردى وتمكنت في المعضـلات كـأنني محـروم

وعليك من علم الإله علامة نور وعز خاتم مختوم
أعطاك بعد محبة ورفاعة شرفا وبرهان الإله عظيم
ولقد شهدنا أن دينك صادق حقاً وأنك في العباد رحيم

ثم أن النبي أمر منادياً في سائر القبائل والعربان ينادي: هلموا إلى رسول الله وودعوه واستأذنوه في الذهاب إلى أوطانكم. فأذن لهم ودعا لهم بخير وما عافية وسلام ودوام.

وهذا ما انتهى إلينا من فتح مكة المشرفة. ثم ارتجل لسان الحال يقول:

هذا فتوح لبيت الله المحرم وزمزم والصفا والحجر ملتزم
خص الإله هذا النبي فاق البرية من عرب ومن عجم
فآدم ثم نوح والخليل ومن قبلهم قد مضى فازوا بمغنم
أما النبي الذي ثارت بطيعته أرض الحجاز الدنيا من الظلم
فجاءنا بجيوش لا عداد لها طوعاً له سعياً على القدم
لما رآه أبو سفيان وافداً نحو المقام وبيت الله والحرم
ضاقت عليه رحاب الأرض أجمعها وصارت في شدة اليأس والنقم
تداركته عنايات ومغفرة وصار من جملة الأصحاب والهمم
كذاك هند أتت والقلب منكسر إلى الذي قد أتى بالعلم والحكم

فاعرض المصطفى عنها بما فعلت		من فتح قلب ذلات من الحزم
نادت يا مصطفى إني موحدة		وقد شهدت بأن الله ذو كرم
وقد بعثت بأفضال ومكرمة		وأنت خير الانام للعرب والعجم
فداركتها هدايات ومغفرة		وصفح ذنب بجمع الشمل واللمم
وأقبل المصطفى والله ناصره		طوف بالبيت للأركان مستلم
وعند رؤيته الأصنام قد كسرت		والكبير لهم بسيف ذي همم
وأصبح البيت والأركان مشرفة		بنور خير البرايا المبعوث للأمم
وقد تتأهب خيام الفتح كاملة		بشرى لنا بختام الفتح مختتم
ياربنا يا إله الخلق كلهم		اغفر لمن قرا هذا يادافع النقم
واجبر كذا قلبه المكسور		يا عالم السر بل يابارِي النسم
وجد بسعي لبيت الله تبلغه		بحق من خص بالآيات والحكم